انحدار وغروب الإمبراطورية العثمانية

بعد وصول الإمبراطورية العثمانية لذروة قوتها، دخلت عهدا طويلا من السكون والخمود حتى بداية القرن الثامن عشر ثم بدأ الانحدار التدريجي، انحدارٌ طويلٌ مظلمُ مملوءٌ بالمشكلات.

* أزمة الإمبراطورية وعذابها الطويل :

منذ عام ١٨٠٠ م فصاعدا عاشت الإمبراطورية أزمة مستديمة ، وقد أثر ذلك في الظروف الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة لتعقد الجهاز الإداري ، كل ذلك كان مصحوبا بسلسلة طويلة من الحروب الفاشلة – التي شنتها أساسا ضد النمسا ثم لاحقا مع روسيا – وفقدان جزء عظيم من أرضها- خسرت الإمبراطورية حربين متلاحقتين ضد روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وكان عليها أن تترك أراضيها علي الشاطئ الشمالي للبحر الأسود والولاية المغولية كريمين خانات (منطقة القرم) وحاول السلطان سليم الثالث إصلاح الهيكل الحكومي ، وإداراته والاقتصاد لكن أدي ذلك إلي تعميق المأساة والدخول في عهد طويل من الاضطراب الداخلي . ودخل الحكام المحليين وحكام الأقاليم في حروب مع بعضهم البعض – إذ اصبحوا شبه مستقلين حينذاك – بالإضافة –

إلـي حـروبهم ضـد الحكومـة المركزيـة . وقـد اجتاحت شبه جزيرة البلقان العصابات المسلحة المدعوة " كورجاليس و دعاليز " لعدة أحقاب وأغلبهم من الجنود السابقين بالجيش العثماني الذين انقسموا واندفعوا في عمليات نهب جماعي لعامة الناس ، وقد جندت حركة المتمردين –(هايدوتر) عددا ضخما من الأهالي المحليين لمقاومة العصابات المسلحة تلك وكذلك الإدارة العثمانيـة ، وقـد وصـف مـؤخرا البلقـان تلـك الفصـائل المسـلحة المتمـردة – غالبـا – كإرهاصات وبشائر لحركة التحرير الوطن ، رغم أن أنشطتهم – في الحقيقة – كانت أشبه كثيرا بأعمال أعدائهم.

وقد مدت تلك الأزمة نضال التحرير الوطني لشعب البلقان بحافز قوي ، فبعد انتفاضات عديدة وحربين تركيتين – روسيتين (١٨٠٦-١٨٠٩/١٨١٢ – ١٨١٢ م) بدأت الولايات المستقلة تظهر للوجود في منطقة البلقان في أراضٍ كانت من قبل جزءً من الإمبراطورية العثمانية ، فالصرب ظهرت عام ١٨١٢ م بعد معاهدة السلام ببوخارست ، واستعادت اليونان حكمها عام ١٨٢٩ م عقب معاهدة سلام ايدراين في حين حصلت الولايات المحلية لمونتينجرو ومولدافيا وفالاشيا علي الاستقلال الكامل تدريجيا ، وقد شكلت الأخيرتين دولة رومانيا .

وقد ارتبطت محاولات الإصلاح العام في الإمبراطورية خلال القرن التاسع عشر – وهو ما يسمي بعصر الإصلاح – " أو التنظيمات " باسم السلطان محمود الثاني بصورة أساسية (١٨٠٨ – ١٨٣٩ م) وقد تحول كل ذلك إلي فشل مطلق ذريع . لقد حاول إزالة النظام الاقتصادي القديم المؤسس على الروح العسكرية مع إلغاء فرق الانكشارية وقدم للدولة جيشاً نظامياً مصحوباً بإصلاح تقسيمات أراضى الدولة وإعادة تنظيم الهيكل الضريبي الإداري كله ، وقد ضمن توقيع الاتفاقية التي سُجلتْ عام ١٨٣٩ م المعروفة باسم جل- هان هاتيسيريف تطبيق المساواة الكاملة في الحقوق المدنية لكل رعايا الإمبراطورية المتداعية ، ولم يؤد ذلك كله إلي أية نتائج عملية لكنه زاد الأزمات عمقاً ، وقد ظهر أن انتصار تركيا بمساعدة بريطانيا (العظمى وقتها) وفرنسا على روسيا أثناء حرب القرم١٨٥٣- ١٨٥٦م كلفها ثمناً باهظاً فاق التوقع ، إذ انهالت بضائع أوروبا الغربية ورؤوس أموالها على أسواق الإمبراطورية ، وزادت الديون الأجنبية الهائلة من الأزمة الاقتصادية إلى أن تفككت الإمبراطورية عام ١٨٧٥ ولم تتمكن من سداد حقوق دائنيها في غرب أوروبا ، وازداد نضال شعب البلقان من أجل التحرر الوطني قسوة فظهرت دولة مستقلة للبلغار عقب سلسلة من

الانتفاضات ،وبعد الحروب الروسية التركية طوال عامي ١٨٧٧ -١٨٧٨ م وقد انقسمت أساسا إلي الولاية المحلية "بلغاريا" ومقاطعة شرق روميليا التي ظلت خاضعة للإمبراطورية العثمانية حتى عام ١٨٨٥ م حينما تم توحيد الشطرين ، في الوقت الذي حصلت فيه الولايات المحلية في مولدافيا وفالاشيا بالإضافة إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية واليونان ومونتينجرو والصرب علي مساحات هائلة من الأراضي العثمانية .

تواصلت سكرات الموت انتشاراً في جسد الإمبراطورية العثمانية ، وحاولت ثورة الأتراك الشباب (حركة تركيا الفتاة) عام ١٩٠٨ م إحياء مجد الإمبراطورية والحفاظ علي عظمتهما لكنها ذهبت هباء ، إذ عانت الإمبراطورية هزيمتها النهائية أثناء حروب البلقان عام ١٩١٢ – ١٩١٣ والتي كان من نتائجها قيام كل من اليونان وبلغاريا والصرب ومونتينجرو بتقسيم أراضي البلقان الإمبراطورية فيما بينهم كلها تقريبا باستثناء العاصمة في استانبول ومنطقة ثراس الشرقية .

- مصادر تاريخية عن الغجر

نتيجة لتلك الأحداث أخذت قوة الدولة – وصيانة سجلاتها (مثل سجلات الضرائب – والقضاء) في التدريج وأصبح توثيق حياة الغجر في الإمبراطورية أكثر تشتتا وأقل صدقا

ولحسن الحظ كانت هناك – في نفس الوقت – زيادة في كتابات شهود العيان دوّنها مؤلفون أجانب يسافرون لأسباب متعددة عبر الإمبراطورية العثمانية وبدأت الدراسات العلمية عن حياة الغجر كذلك ، وتلك المصادر لابد وأن تكون ذات شأن وغالبا ماتكشف مظاهر مثيرة من حياة الغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية.

*أدلة جوهان كميبلين : -

يسلط نصّ مثير من الأدلة الضوء علي حياة الغجر واتجاهات الناس نحوهم ، وهي وصف للغجر في منطقة نيشى من يوميات السفر للرحالة جوهان كيمبلين والتي تعود إلي عام ١٧٤٠ م :

"..... يوجد حوالي ٢٠٠٠ عائلة غجرية تعيش في منازل مصنوعة من العصي المجدولة معا ، وقد سكنوا تلك الأراضي منذ زمن طويل ، لذا فالتجول (لم يعد) مظهرا من مظاهر حياتهم كما هو بالنسبة لمعيشة الغجر عندنا " المصريين " !! فالنسوة يرعين أسرهن ويؤدين الأعمال المنزلية ، بينما يسلم الرجال أنفسهم لأعمال وضيعة متعددة ، ولكن العديد منهم يعملون بحرف مهنية أخري ، وقد تم استبعادهم عن العمل بالزراعة ، وعقيدتهم إما أن يكونوا مسلمين أو مسيحيين لكن أغلبهم بلا عقيدة .. ولو قرر واحد منهم الاعتراف لدي الكاهن ، لا يقوم بأداء أية طقوس ولا يلتزمون بأية تعليمات

، ولكل منهم زوجة واحدة فقط يتزوجونها بعد تصريح شفهي يصدره زعيمهم ، وتعد ضريبة الرأس التي يدعونها هاراش – ويجمعها الأتراك منهم – عالية جدا ..... وفي الحقيقة لانجد بينهم أحدا من النبلاء ولا الزعماء البارزين ولا يوجد نظام أو قانون بل الجميع يحتقرونهم ويكرهونهم ، فهم المتهمون المعتادون عقب كل سرقه أو نهب .

وملابس الرجال تشبه ملابس البلغاريين ، وترتدي النساء عقودا حول رقابهن مع " دلايات "[٣] مزينة بقطع النقود المعدنية التي تصل من الأذن للأذن الأخرى ، ويرتدي الرجال أحذية جلدية ومعطفا يدعونه " أنتريا " بالإضافة إلي قفطان جلدي أشبه بالنموذج اليوناني ، وصدورهم جميعا عارية تماما ، ويعقصون شعورهم في دائرة بشريط يضيفون إليه منديلا قديماً ...."

وللوصول إلي بدايات أصول هذه القبائل يمكننا الرجوع بالتاريخ حتى زمن نيكوفوروس حوالي عام ٨١١م (وتبع ذلك وصفٌ مسبقٌ لأحداث سبق ذكرها تتعلق باستقرار الجماعات المدعوة أتسنجاني مبكراً في أقليم ثراس) ومن هناك – علي ما يبدو – تم اشتقاق اسم الغجر(

---

[٣] غطاء لنصف الوجه أشبه " بالحبرة " أو " اليشمك " مزين بقطع معدنية أو أصداف تتدلى لتغطي الجزء الأسفل من وجه المرأة . المترجم

زيجيونر) بصورة أو بأخرى، ويبدو أيضا أن عددا كبيرا من المهجرين أو المصريين !!! المُبعدين قد اختلطوا بهم ، وعلي هذا يمكن القول أن لفظي الغجر (زيجيونر) ومصريين كانا مستخدمين بصورة مترادفة لهؤلاء القوم .

وهم فخورون جدا بذلك الإرث المصري (ايجيبشيان) ، وعلى أية حال لا يوجد في تقاليدهم ولا لغتهم ما يبرز كمظهر للمصريين أو حتى للكلدانيين لولا انتشار بعض مظاهر العرافة والخرافة ، إذ أن لغتهم شديدة الغرابة ، في حين تأثرت لهجاتهم وطرق نطقهم باللغة العربية .

- معلومات سكانية:

نجد المعلومات السكانية التي تتعلق بالغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية تعطي ملامح شديدة العمومية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، لأن انهيار النظام الإداري أدى إلي غياب السجلات المنظمة للضرائب لسكان الإمبراطورية ، حتى أن آخر دليل شامل وصلنا يعود إلي عام ١٦٩ م في الأناضول وروميليا وفيه نجد ٤٥.٠٠٠ غجري مسجلين بالرجال فقط الذين يدفعون الضرائب ، كان ١٠.٠٠٠ مسلم منهم يدفعون ٥ قروش " جروسات " ضريبة رأس لكل فرد ، في حين كان الباقي مسيحيين يدفعون ٦ قروش لكل فرد .....

وفي عام ١٨٦٦ م سجلت وثائق وزارة المالية الرسمية أن عدد سكان الإمبراطورية كان ٤٢ مليون نسمة ، عاش ١٨ مليون منهم في أوربا بما فيها ولايات: مونتينجرو والصرب ومولدافيا وفالاشيا . وكانت بعض واحدة منها تتكون من ١,٣٠٠,٠٠٠ من المغول والشراكسة و التسنتسار والأرمينيين واليهود والغجر .

ويتبنى الكُتّابُ المعاصرون أساليب مختلفة في حساب أعداد الغجر في الإمبراطورية العثمانية وأدي ذلك إلي اختلاف واسع في تحديد تعدادهم، لذا تنوعت تقديرات أعداد الغجر المنشورة عن الجزء الأوربي في الدولة التركية من ٥٠.٠٠٠ إلي ما يصل حتى ٦٢٠.٠٠٠ ، ووفقا لما ذكره يوبيسيني كان هناك ٢١٤.٠٠٠ غجرياً عامي ١٨٥٣-١٨٥٤م ، أما الغجر في آسيا الصغرى فنادراً ما كانوا يُذكرون ، في حين كانت المعلومات عن آسيا وأفريقيا ناقصة تماما ، وعلي أية حالٍ ليس لدينا أي مبرر للشك في مقولة آمي بويه حينما كتب في القرن التاسع عشر أنه (لا يوجد بلد في أوربا به اتسنجاني " الغجر" أكثر من الإمبراطورية العثمانية)

وتتوافر معلومات أكثر دقة عن وحدات إدارية أو قروية أو إقليمية معينة، ففي عام ١٨٧٦ م علي سبيل المثال تم تسجيل ما جملته ١٣.٨٩٢ من السكان الخاضعين للضريبة في

إقليم بلوفديف للرجال البالغين فقط بلغ عدد الغجر المسلمين منهم ١٢.٤٧١ نسمة والغجر المسيحيين إلي ١.٤٢١ نسمة وبتقسيم تلك الأعداد علي المقاطعات نجد الآتي : في بلوفديف ذاتها ٥.٤٧٤ من المسلمين و ٤٩٥ من المسيحيين وفي تاتار بازار ٢.١٢٠ مسلما و٤٩٥ مسيحيا وفي هاسكوفو ١.٥٤٨مسلما و١٤٥ مسيحيا وفي ستارا زاجورا ٩٨٩ مسلما و٧٠ مسيحيا وفي كازانلوك ١.٣٨٤ مسلما و٢٤ مسيحيا وفي تشيرباني ٤٢٠ مسلما و٨٨ مسيحيا وفي آهي سيليبي * ٣٧٧ مسلما وفي سلطان ايري ١٥٩ مسلما .

وتوجد بعض الأرقام المفيدة – كذلك – في كتاب :

. Donau Bulgarien und der Balkan

الذي دونه الجغرافي النمساوي فيليكس كانيتز الذي ارتحل عبر الأراضي البلغارية خلال ستينات وسبعينيات القرن التاسع عشر ، فوفقا لكتابه كان يوجد في كازانلوك ٥٠ عائلة غجرية وفي لوفيتش ١٥٠عائلة من الغجر الأتراك و٣٠٠ من المسيحيين وفي سفيشتوف ١٦٠ عائلة غجرية وفي فيدين ١٠٠ عائلة غجرية وفي روس ٥٠٠غجري وفي سيليسترا ٥٨ أسرة غجرية وفي دوبريش ٣٠ عائلة غجرية وفي كارنوبات ٤٠ عائلة غجرية وفي كالوفر ٤٠ أسرة غجرية وفي أورهانتي

٢٠عائلة غجرية وفي صوفيا ٩٠٠ غجري وفي فراتسا ٢٠عائلة غجرية وفي بيركوفيتا ٣١ عائلة غجرية وفي كوينـاري ٦٠- وأكثر الإحصائيات دقة وشمولاً لديموجرافية السكان الغجر خلال تلك الفترة هي تلك التي وردت في مؤلف قسنطنطين جيريك " تاريخ البلغار" حيث يذكر أن في مقاطعة الدانوب كان يوجد من الغجر المسيحيين ٧٥٥٩ و ٢٤.٨٣٥ من المسلمين (الرجال البالغين فقط هم من تم إحصاؤهم) في حين كان يوجد في مقاطعة ايدراين ٤.٦٢٦مسيحيا و٢٢.٧٠٩ من المسلمين .

لم يكن انتشار الغجر موزعا بصورة متساوية عبر كل الأقاليم أو الوحدات الإدارية ، إذ لاحظ جميع الكُتاب أن الغجر كانوا كثيرين في المناطق المركزية لشبه جزيرة البلقان (خاصة في ثراس) وفي محليات مولدافيا وفالاشيا ويتضح من المعلومات المستقاة آنفاً وفي الفصل السابق ، أن كانت هناك نية بالنسبة للغجر لتغيير معتقداتهم ، فالغجر المسيحيون خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر سادوا المنطقة ، ولكن مع قدوم القرن التاسع عشر تحول التوازن العددي بشكل درامي وأصبح المسلمون هم الأغلبية وكان معدل نسبة المسلمين للمسيحيين قد تم حسابه بصورٍ مختلفة هو ٣:١ أو ٤:١ وكان من الصعب معرفة نسبة

محددة، إذ كان الغجر يُغيّرون – غالبا – دينهم لكن كان هناك ميل مستمر عبر القرون لتبني عقيدة الإسلام .

ولم يتم حسم حساب معدل الغجر المقيمين إلي نسبة الغجر الرُحّل إذ للمرة الثانية تختلف المعطيات للتمييز بين الحالتين " الإقامة – الترحل " ولم تستقر أبدا بوضوح ، وذلك يفسر أسباب تناقض المؤلفين مع بعضهم البعض ، فالعالم الفرنسي آمي بوييه – مثلا – يذكر أن الغجر المقيمين كانوا أكثر عددا من الرُحّل ، بينما كانت النسبة في كتاب الدكتور اليكساندر باسباتي وهو بروفيسور يوناني في استانبول ومؤلف أول كتاب عن الغجر في الدولة العثمانية علي العكس من ذلك .

وآخر فترة لدينا عنها معلومات مقبولة وُيعتد بها عن الغجر في ظل العثمانيين جاءت من إقليم مقدونيا عند بداية القرن العشرين ، وفقا لكتابات فاسيل كونتشوف ، كان هناك ٥٤.٥٥٧ من الغجر ، منهم ٣٥.٠٥٧ من المسلمين و١٩.٥٠٠ من المسيحيين ، لكن المنطقة التي غطاها ذلك الحصر لم تشمل الحدود الإدارية المحددة في ذلك الوقت ، فمقاطعة سكوبجي العثمانية – علي سبيل المثال – شملت جزءا كبيرا من كوسوفو لكن كوسوفو لم يضمها كونتشوف لأرقامه .

- الغجر وعصر الإصلاح :

أثرت عمليات الإصلاح – أو علي الأقل محاولات ذلك – في مجتمع الغجر ، وبينما كانت تتم التغيرات المفترضة ، جرت محاولات لتنظيم الحالة المدنية للغجر لتتقارب مع حالات الرعايا الآخرين داخل الإمبراطورية ، ورغم الرغبة في الإصلاح العام للإمبراطورية العثمانية – وانتهاء تلك الجهود والأفعال إلي نتائج غير مؤثرة ، ظلت الظروف المحيطة بالغجر دون تغير .

قامت السلطات العثمانية باستخدام معايير إدارية لدفع الرُحّل إلي الاستقرار بصورة دائمة، وفي معظم هذه الحالات جاءت النتائج غير مؤثرة، ففي عام ١٨٠٥ م – علي سبيل المثال – أمر حاكم البوسنة القادة المحلين بإيقاف الغجر الرحل عن ممارسة أساليب التجول التي يعيشونها.. ولكن وفقاً لتقارير الحكام المحليين ؛ ورغم أن الغجر كانوا قد وعدوا بتنفيذ ذلك ؛ إلا أن وضعهم لم يتغير كثيراً ،ولذا فقد أصدر السلطان فرماناً عام ١٨٤٥م بأن الغجر المتواجدين في منطقتي روميليا والاناضول الذين يتجولون باستمرار بغرض النهب والسرقة وارتكاب الاعمال الشريرة يجب أن يُسمح لهم بالاستقرار حيثما يشاءون طالما وافقت السلطات المحلية ، علاوة على أنهم أحرارٌ في التنقل بين القرى لشغل أنفسهم بأمور حرفتهم مثل أعمال الحدادة

وصناعة العُلب الصفيح وغيرها من بداية فصل الربيع حتى نهاية الخريف هذا إذا لم يتسببوا في أى أذىً للسكان المحليين ، ولم تتعدَ نوايا مدحت باشا - رجل الاصلاح المعروف وحاكم ولاية الدانوب في ستينات القرن التاسع عشر (١٨٦٠م) – بقاءها حبراً على ورقٍ ، وهو من حاول أن يمنع استمرار الغجر في سلوك حياتهم المتنقلة بشدة عام ١٨٦٥م ، وقد أيد جهده هذا كل السلطات المركزية لكنه لم يجد طريقه للتنفيذ أبداً . ونتيجة لأزمة الامبراطورية التي مرت بها خلال القرن التاسع عشر ، توقف بعض أعضاء المجتمع المحلي في البلقان عن أداء واجباتهم ومهامهم مما دعى الغجر إلى القيام بتلك الادوار بدلاً منهم ، ونجد مثالاً لذلك في نصٍ كتبه سيمون تاباكوف بعنوان (محاولة في تاريخ مدينة سيلفن) يتحدث فيه عن " الفوى نوكس" وهم فئة معينة من المواطنين الذين ظلوا – حتى ذلك الحين- عنصراً أساسياً من عناصر السكان البلغار الذين كانوا يقومون بإداء عدد من الواجبات الخاصة مثل الحراسة السلحة للممرات الجبلية والعناية بالخيول في قصر السلطان وما الى ذلك .

وخلال فترة نهاية نظام الفوى نوكس في بلغاريا وذلك بعد صدور تنظيمات عام ١٨٣٩م في اقليم سيلفن – خاصة منطقة جيرافتا – أصبحت مهمة السفر إلى استانبول سنوياً لاجل

رعي خيول السلطان وتسريحها بالمراعي مهمة يختص بها الغجر وحدهم . وقد بقى مصطلح " شيري باشا" قائماً منذ ذلك الحين ونعتا لرئيس أو زعيم جماعة الغجر ، في حين تعني الكلمة أصلاً في اللغة التركية قائد مجموعة جنود أو زعيم عصابة في العادة .

وخلال فترة انحدار الامبراطورية العثمانية التي استغرقت ثلاثة قرون ، تلاشت الامتيازات التي تمتع بها الغجر الذين عملوا بخدمة الجيش في وحداته المعاونة تدريجياً ، ولم يعدْ أحدٌ يذكر لهم ذلك ، وهذا ما يفسر ورود نصٍ في تقرير رسمي قدمته الحكومة في ٢١ يناير عام ١٨٧٤م ، يقول أن الغجر لم يؤدوا الخدمة أبداً بالجيش لكن قد يُسمح لهم بذلك ، في حين سيتم الغاء الضريبة التي تُدفع كرسم خاص يؤديه المسيحيون والفئات المماثلة التي لاتُستدعى لاداء الخدمة العسكرية وتسمى " البدل العسكرى " وهذا الاقتراح ظلّ مثل معظم محاولات الاصلاح مجرد حبرٍ على ورق، كما ظلت أوضاع الغجر كما هيَ دون تغيّرٍ يُذكر وللنظرة العامة المعتسفة نحو الغجر ، قامت الادارة العثمانية باستخدامهم ولكن في الاعمال المتدنية فقط. وقد بالغ في عكس ذلك الكاتب فيليكس كانيتز حينما أدعى أن ٩٩% - مالم يكن ١٠٠% - من عُمَد القرى البلغارية كانوا من الغجر المسلمين ، وعلى أية حالٍ

فالاحصاءات لاتشير الى عدد عُمَدالقرى الفعليين وإنما تشير إلى رجال الحرس (البودار) الذين عينتهم الدولة لحراسة أراضيها ، وقام أهالي القرى بإمدادهم بالغذاء حيث كان ذلك شائعاً طوال القرن التاسع عشر و وكان الغجر – المسلمون بالطبع – يتم تشغيلهم في فرق البوليس غير المنتظمة " الظبطيات " ،واثناء الانتفاضات والثورات التي كان يقوم بها السكان والرعايا المحليون ، كما ساهموا أيضاً بكفاءة في القوات المسلحة التركية غير النظامية (المسماة باشبوزقات) وقاموا بدور في نهب واحراق القرى المسيحية .

*مصطفى شيبل

يصعب تحديد دور الغجر بصورة مؤكدة في الاحداث التي أدت إلى انهيار الامبراطورية العثمانية ، وكذلك طبيعة الاتجاهات الرسمية والشعبية نحوهم ، ومدى انعكاس ذلك على الحالة العامة لهم في المجتمع ، فالمرء يمكنه فقط تخمين اتجاهات العامة – على سبيل المثال – نحو مشاركاتهم في جماعات مثيرة مثل جماعتي الكورجالي والدآلي المعروفتين وقتها ، وبنفس المنطق فإنه ليس واضحاً اذا ماكان المتمرد " مانوش فوى فود " له وجود حقيقي أم لا ، إذ يأتي ذكره في الاهازيج الشعبية البلغارية التي تفترض وجوده في القرن الثامن عشر ، وكلمة " مانوش" تعني في اللغة الرومانية "

الشخص " ، وبالطبع لايمكن قبول ذلك اللفظ كأسم أول في اللهجة البلغارية أو أية لهجات أخرى تمثل أى مجموعة عرقية أخرى بالمنطقة . وعلى خلاف ذلك الاسم شبه الاسطورى " مانوش فوى فود" ، لانجد شكاً في وجود الغجرى مصطفى شيبل ، النموذج المنبع للشخصية الرئيسية في القصة القصيرة الشهيرة"شيبل" التي كتبها يوردان يوفكوف ، وهو واحد من الكتّاب الكلاسيين في الادب البلغارى ، رغم أن شيبل لم يظهر كغجرى في الحكاية .

وتُعد قصة شيبل نموذجاً للمعالجة الغامضة الملتبسة لحدث بعينه من خلال مصادر مختلفة ، كذلك لعدم قدرة الوثائق الرسمية على كشف الحقيقة التاريخية الكاملة . ونقتبس هنا بعضاً من أوراق الادارة العثمانية المتعلقة بمسألة مصطفى شيبل هذا ، فهذا أولاً خطاب من حاكم اقليم سيلفن ؛

" الخطاب الحالي من خادمكم المطيع والموجه لفخامة الوزير الضابط الآمر لجيش روميليا ، والممثل الاعلى للامبراطورية العثمانية .

إلى فخامته

إن الفرد المسمى شيبل أوغلو مصطفى هو قاطع طريق معروف ، يعود أصله إلى جماعة الغجر التي تعيش في قرية جراديت بصورة

دائمة من اقليم سيلفن بالاضافة الى بعض من رفاقه اللصوص ، ويجوب انحاء الاقليم المذكور والمقاطعات المجاورة ، ويسبب دماراً وخسارة للناس الفقراء وللمسيحيين ، وذلك بجرأته على سلب ممتلكاتهم بالقوة وعلى قتل اناس وإثارة غضبهم . وأرى أن تركه لذلك السلوك المريع لايمكن ضمانه . – بواسطتى انا خادمكم المطيع – ولا أمنحه رضاى ولاثقتي فيه

وبرغم حداثة الاستقرار والعيش الثابت في القرية المذكورة جراديت ، أصبح معروفا أنه مازال يطلب – أحيانا وسرا – نقودا وسلعا من الفقراء والمسيحيين ، الذين يسكنون هذه المنطقة ، واستهوته العودة من جديد للعنف والظلم وهو ما أدي إلي صدور أمر بأجراء التحقيق في ذلك.

وكما ذكرت في تقريري المرفوع لفخامتكم ، أخطركم أنني أنا -خادمكم المطيع- قد علمت محتوي الأمر الكتابي الذي يتعلق بالمسألة ، وهو يستحق التقدير والاعتبار ويبدي الطيبة والخير ، ويأمر بتنفيذ إزالة آثار الشر التي سببها الشخص المذكور عالية مهما كان المبرر الذي سيقدمه كيما نُعيد الرفاهية والأمن والطمأنينة والاستقرار لجميع قطاعات السكان والمواطنين .

ولان المذكور آنفا قد ارتكب لعدة سنوات كل أنواع الشرور والآثام في تلك المناطق أثناء مناقشة الأمر الخاص بإزالة الضرر الذي تسبب فيه ،وحينما ثار السؤال بشأن غفران أعماله الشريرة السابقة ، طلب المسيحيون المقيمون بالقرية المذكورة – وهم يستحقون الاحترام والتقدير – أن يعتمد ذلك التسامح مستقبلا على كلمته التي وعد بها وعلى سلوكه .

وبالنسبة لمسألة توفير الطمأنينة للفقراء في ظل الظروف الموصوفة سابقا ، وبفضل المراسلات المكتوبة مع سلطات الإقليم ، نعتقد إمكان تحقيق ذلك ، وعلي كل فالشخص المذكور هذا لا يمكنه البقاء طويلا دون سلب ونهب وهو أمر متأصل في طبيعته وشخصيته .

ووفقا للمعلومات التي وصلتني والتي فحصتها بدقة بنفسي ، فقد تجرأ مؤخرا على تكرار ممارسة بعض الأعمال الشريرة .

آمل بجهودكم أن تختفي ذكري ذلك الشر و الأذى المستفحل الذي قام به اللص المذكور وأن تزول أثار أفعاله وأن كل جهد ممكن سيبذل لتأمين السلام والاستقرار للسكان حتى يتمكن الرعايا المسيحيون من الاستمرار في أعمالهم .

وكما هو معلوم لفخامتكم في هذه المسألة والمسائل الأخرى فإن إصدار الأمر عائد لصاحب الحق في إصداره (يقصد عائد للأمير) .....

بتاريخ ١٠ مارس ١٨٥٣ م
خادمكم المطيع . حاكم إقليم سليفين : السيد علي رضا .

وناقش الجيش القضية وتوصل للقرار التالي :

٢٥ مارس .
مع بالغ الاحترام، وصدور أمر بواسطة المحكمة العسكرية المؤقتة لاتخاذ الأجراء التالي :

وفقا لمعني التحذير المكتوب والاستفسار بشأن الحقائق ، التي بُذلتْ بشكل شخصي بهدف إثبات صدقها ، يصبح واضحا أن قاطع الطريق المذكور ليس من النوع الذي يمكنه الوفاء بتعهداته أو حتى مستعد للتعلم ولا لإصلاح طريقه في الحياة ، فهو جريء ووقح لذا يجب عقابه لأفعاله التي لايمكن إقرارها ، ولكل هذا يجب اتخاذ العناية الضرورية ليبقي في الهيئة التي يستحقها بما وُجد عليه وأُكتشف فيه (من شرور) .....
ويجب إصدار أمر وزاري بواسطة قائد هيئات الجيش موجه للحاكم المذكور سابقا كيما يرسل ذلك اللص قاطع الطريق بسرعة للتحقيق هنا ، مقيدا في الأغلال حتى لا يهرب خلال عملية نقله وكل ما يمكن عمله يجب عمله لتأمين ذلك .

وكما هو معلوم لجلالتكم ، فإن إصدار أمر بهذا الشأن موكول لصاحب الأمر (لكم)
التاريخ ٢٥ مارس ١٨٥٣
المجلس الأعلى لجيش روميليا . رقم ٩٢١

وقد اكتسى مصير مصطفي شيبل في قصته بمنحي مختلف رسمه له المتمرد البلغاري الشهير والناشط في حركة التحرير الوطني البلغارية ، بانايوت هيتوف في سيرته الذاتية (كيف أصبحت متمردا) ،" تسبب مصطفي شبل في الكثير من الأضرار ،وهو من الغجر الأتراك وكان يرشو حاكم كارنوبات التركي بمبالغ تتراوح بين ١٠٠ إلي ٢٠٠ ليرة تركية كيما يتظاهر بمطاردته وأنه لم يتمكن من القبض عليه ، وعبر فترة تطول من ثمانية إلي عشرة أعوام ضج الأهالي من بورجاس حتى سليفن وفي كوتل وايلينا وجأروا بالصراخ للسماء وعند سماع اسم " شيبل " كانوا يرتعدون ، وقد قبضوا علي " مصطفي شيبل " عدة مرات وأخذوه إلي مدينة إيد راين لكنه ظل يهرب وينهب الناس ويجلب عليهم العار .

إذ بينما كان الناس يحصدون محاصيلهم في الحقول كان مع عصابته يهاجمون القرى ، وعند عودتهم في المساء كان يحبسهم ويسرقهم في منازلهم بل ويذبحهم . ولو أن تاجرا أراد أن يمضي لعمل ما فإن عصابة " شيبل " تخطر

زعيمها بأن ذلك التاجر في طريقه إلي رحلة عمل وسوف يسلك هذا الطريق أو ذاك " فينهبه " وبهذه الطريقة جمع ذلك الغجري ثروة طائلة وفي النهاية سامحه الأتراك ، ثم جاء إلي قرية " جرادت " وبدأ يحيا كالعظماء كما لو كان " أغا " كبيرا وعاش كبطل وأمر رعاة الماعز في القرى المجاورة أن يرسل كل واحد منهم إليه من خمس إلى عشر عنزات كما كانوا يفعلون مع أي " أغا " يحكمهم ، كان هو أيضا لديه عديد من العنزات في الغابة . وقد أطاعه أولئك الرعاة إذ من يجرؤ علي عدم إرسال ما يطلب أو الامتناع عليه ؟ فلو أنهم رفضوا سيقوم بذبحهم في نفس اليوم . وفوق كل ذلك اختطف " مصطفي " (ذلك الغجري) امرأة بلغارية واتخذها زوجة من نفس قرية " جرادت " التي كانت تحت سلطة العمدة " فوربان شوربانجي " اسمها " جندة " وكان لها زوج لكنه ضعيف كالمرأة العجوز لا يملك روح الشجاعة لقتل زوجته أو قتل الغجري – لذا ترك زوجته للغجري مصطفي الذي غمرها بالعملات الذهبية التركية القديمة وتحملت قرية جرادت تلك الإهانة التي أوقعها بها غجري تركي نكرة، وأكاد أقول أن ذلك الرجل لم يكن خارقا .... لقد رأيته مرة عندما كان في سجن سيلفن ولم أصدق أن ذلك الرجل ذا البنية المكتملة ، الطويل الأشقر ، عريض المنكبين كان من

الغجر لكنهم أخذوه بعيدا وهو يتباهي بأنه قد منح سلطان سليفن نقودا من أجل مباني الحكومة (كوناك) وأنه قد رشا بعضا من المسئولين ،وفيما بعد ولهذا السبب البسيط أرسل الأتراك فصيلة من الشرطة من مدينة يامبول لعمل كمين علي الطريق الواصل بين قرية جرادت وكايابيش ثم أرسلوا رجلا تركيا لمدينة جرادت لإخبار مصطفي شيبل أن أصدقاءه في انتظاره لتنفيذ عملية سرقة كبري حيث أنهم ليسوا قادرين علي ذلك بدونه وقام مصطفي بتسليح نفسه وامتطي جواده وغادر جرادت وقبل أن يمضي في الطريق لنصف ساعة من الزمن انطلقت رصاصات بنادق جنود الكمين وهكذا تم قتل ذلك الغجري.

*الغجر الرحل :

خلال تلك الفترة استمر عدد كبير من الغجر في ظل الإمبراطورية يعيشون حياة الترحال وهناك وصفٌ تفصيلي – نسبيا – للغجر الرُحّل يمكن أن نجده في كتابات اليكساندر باسباتي :

"رغم أنهم - أي الغجر - يتواجدون بأعداد كبيرة في كل مناطق روميليا ، إلا أنه يمكن تأكيد وجودهم بأكبر الأعداد في منطقة ثراس القديمة . وتأخذنا الدهشة عندما تظهر خيامهم السوداء ، أثناء الفصل الحار من السنة ، كبقعٍ قاتمةٍ في ساحات المدن بالإضافة إلي ضواحي القرى والمدن الصغيرة ، فالمرءُ يراهم في كل

مكان بخيامهم وأمتعتهم وأطفالهم مصحوبين بحميرهم وخيولهم منتقلين من مكان لآخر ، أحيانا تجد عائلة واحدة وأخري تجد أكثر من واحدة ، وخارج أطراف المدن المزدحمة – يمكن رؤية الكثير من الخيام الضخمة التي تأوي أكثر من عائلة – العائلات التي تتوقف هنا تتخذ من المكان محلا للإقامة في أوقات دون أن يعرف بعضهم البعض، ويهجر الغجر مأواهم الشتوي ويدعونه كيشلا أحيانا وسط أبريل ثم ينتشرون في الأقاليم المختلفة تبعا لمواسم السنة ، فبعضهم يترك الشمال ويرحل عبر شبه جزيرة البلقان حتى يصل لأبعد مكان في آسيا الصغرى ، في حين يرتقي الآخرون الأجزاء الشمالية من جبال البلقان ثم يعودون ثانية وسط شهر أكتوبر ، وفي المقابل لا يهجر البعض إقليمهم الذي ينتقلون في أرجائه باستمرار فيتعرفون علي كل السكان في القرى بالإضافة لمعرفتهم باحتياجات الحرفيين والقرويين الخ، وهم – غالبا – يعودون إلى مأواهم الشتوي ، مخيمين عادة خارج القرى بالقرب من إحدى الآبار في حين ترعي حيواناتهم وهي مربوطة من أرجلها بالخيام أما في القرى التركية ، حيث يكونون أقل احتقارا ، يمكن رؤية خيامهم – في الغالب – موزعة وسط القرى ويبدو النموذج الموصوف آنفا لحياة الترحال الفصليّ ، مع وجود مأوي شتوي دائم وهو نموذج قديم تماما

ومميز لخصائص الغجر في القرون السابقة وكان معتادا في البلقان ثم استمر مع بعض التغيرات حتى عصرنا الحالي" .

وتستحق ملاحظات آمي بويه حول طريقة حياة الغجر الرُحّل أن نقتبسها هنا : -

"يعيش الرُحّل في خيام بائسة من قماش رمادي أو أسود ملطخ بالزيوت ، وهم ينشرون خيامهم تلك عند مداخل القرى أو يقومون ببناء أكواخ خشبية مغطاة بالقش لأنفسهم ، باستثناء ألبانيا بشكل خاص، فهم يستطيعون العيش في عربات مغطاة بفروع الشجر أو بنسيج من القماش ، وبالقرب منهم يمكن للمرء أن يري الثيران أو الجواميس التي تقوم بجر تلك العربات وهي ترعى مع البقر التي يقوم بتربيتها سكانن هذه العربات .

وأغلب هؤلاء الرُحّل يقودون الخيل وحينما يرتحلون تبدو الجماعة في صورة خلابة، وأمام ذلك الطابور يتقدم غجري مسلح، حتى سلاحه كان عبارة عن بندقية ألبانية.

ثم يأتي بعده النساء والأطفال يقودون الخيل كذلك – مع بعض من الأفراد على خيول منفردة – ثم تأتى العربات وبقية الرجال سواء على أقدامهم أم على ظهور الخيل وبدلاً من الالتجاء للفنادق (للمبيت) يقضون ليلتهم على حافة الغابة حيث يقيمون مأواهم حول نار كبيرة ، وتتكون أدوات حرفهم من السندان والكوْر

وبعض الزرديات "الكماشة" والمطرقة والمبرد ومفك وكلها أدوات للحرفيين الغجر الرحل .

* الغجر الفلاحون (عمال المزارع) :

تكشف المصادر من نهاية القرن الثامن عشر فصاعداً عدداً متزايداً من محال الإقامة الدائمة للغجر في القرى واعتمادهم على الفلاحة ، وهو اتجاه برز من قرون باكرة في العهد العثماني ، إذ يذكر الإنجليزي "ويليام ماكميشيل" – وهو يعبر الأراضي البلغارية عام ١٨١٨م – عدة قرى في إقليم يانترا السفلي ، " قرى يسكنها الغجر بأكملها ... الذين استقروا بها وانخرطوا في أعمال الزراعة ورغم أنهم يعتبرون أنفسهم مسلمين ، إلا أنهم يدفعون ضريبة الرأس كالمسيحيين " وفى القرن التاسع عشر يصف آمى بويه قرى الغجر مثل قرية هيبى بجى* بالقرب من ايدراين وفوينيكو فى جبل بيند ،بقوله " وجود تلك القرى مسكونة تماماً بالغجر يوحي بأن سكانها هم من العمال الزراعيين ولو أن قرية عاش بها قليل من عائلات الغجر فالفرض الطبيعي أنهم يمثلون حرفيّ القرية ، وعلى كل لو كان سكان القرية كلهم من الغجر فمن المنطقي أن نتوقع أنهم – بخلاف قلة من الحرفيين – من العمال الزراعيين في أغلبهم . وفى اللهجة البلقانية تعنى كلمة "سيليانين" في الغالب كلمة عامل زراعي حيث يتعيشون كلية من العمل الزراعي ، بالإضافة إلى أنه من

المثير ملاحظة اسم آخر قرية ذكرها آمى بويه وهى فوينيكو قد تتعلق بفئة خاصة من السكان في أوروبا في عصر سابق ، أولئك المسمون "فوينكس" الذين ذكروا تواً وبذلك يكون من الممكن أن الغجر المنتمين لتلك القرية قد امتازوا بكونهم من احتياطي الجيش العثماني وكان هناك تطور آخر في استقرار الغجر واحتراف الزراعة كمهنة منتظمة هو تنامي عدد مزارع القرى (تشيفلك كوى) ، وقرى التسكين لعمال المزارع في ضواحي المزارع المقامة حديثاً ، حيث يؤخذ منها الغجر كعمال بالأجر طوال السنة أو في فصل بعينه .

ويقول ستيفان زاهاريف فى وصفه التفصيلي لمقاطعة تتار- بازارجيك عام ١٨٧٠م ، أن الغجر في عدد من القرى كانوا "مزارعين ومربى ماشية" .

في "يامورلار ١٠ عائلات و ٣٥ من السكان البلغاريين ولهم ثلاث مزارع ، و١٠ عائلات من الغجر يعملون بأجر كعمال مزارع (راتاى) و٢٠ من السكان الغجر . وفى شارجانلو – وهى قرية تركية – ٣٥ عائلة تركية و ٣٠ عائلة غجرية ومائة غجري كلهم عمال مزارع ".

ووصف فاسيل كونتشوف لمقدونيا التي تعود لنهاية القرن التاسع عشر تتشابه مع ما سبق :

* "جوانتسى" مزرعة تقع جنوب فوربينى بحوالى ٢ كم وبها ٣٠ عائلة ، ثلاث منها تركية وسبع وعشرون من الغجر .

* "وإنسكو" بها حوالى ١٥ عائلة نصفهم من الألبان المسلمين (أرناؤط) والنصف غجر من عمال المزارع .

* " نوفو سيلكو" مزرعة صغيرة بها حوالي ٢٠ عائلة غجرية .

* الموسيقيون الغجر:

خلال فترة انحدار الإمبراطورية العثمانية . بقى تمايز وبراعة الموسيقيين الغجر في المجتمع دون أي تغيير وفقاً لما ذكره اليكساندر باسباتى الذى يصف حياة الموسيقيين الغجر من القرى المجاورة لإستانبول بقوله "إنهم يذهبون من قرية لأخرى من أجل الاحتفالات والأعياد الخاصة بكل من المسيحيين والأتراك (المسلمين) سواء بسواء ، فيعزفون الموسيقى ويغنون "ويلاحظ ذلك آمى بويه" بقوله:

"يمكن القول أنه بقدر أهمية الموسيقى لهؤلاء الغجر ، فإن لها استخداما حقيقيا في أراضى تركيا" .

ونحن نجد خلال القرن التاسع عشر ولأول مرة إشارات لحفلات عامة للموسيقى الغجرية، ورغم أنهم ليس عليهم التزامات قانونية تجاه الإدارة العثمانية، إلا أن مجموعات من الموسيقيين قد تمت دعوتهم على يد السلطات

المحليـــة لعـــزف موســـيقاهم فـــي مناســـبات معينة.ولنأخذ عام ١٨٤٦م كمثال عند استقبال السلطان عبد المجيد في جبروفو ، حيث تمت دعوة فرقتين من الغجر من أجل الاحتفال في المدينتين المجاورتين تورنوفو وترياڤنا . وقد سُر السلطان بموسيقاهم وبالإضافة إلى منحهم إكراميـة "البقشيش" قـام بمكافـأة قائـدهم بابـا تسفياتكو بإهدائه آله كمان مرسلةً خصيصاً من استانبول ومزينـةً بالعـاج ، ومجموعـة الغجـر الموسيقية تجمع عادة آلتيّ الزورباس التقليديتين ومعهما طبلان ، وتعزف – كذلك – في الأعياد المحليـة لنوعيـة خاصـة مـن الاحتفـالات (عيـد التستير مثلاً)

* طبقة العمال من الغجر :

قام بعض الغجر في بلغاريا بتثبيت أنفسـهم فـي حِـرَفٍ جديـدة تمامـاً ، دون وجـود سـوابق لهـا وسـط أبنـاء عمـومتهم فـي أنحـاء أوروبـا ، كمـا فـي حالـة طبقـة العمـال الغجـر "البروليتاريا" في مدينة سليفن .

قام البلغاري دوبرى جيليازكوف المعروف بـ "رجل المصنع" بافتتاح أول مصنع حديث للنسيج عـام ١٨٣٦ فـي مدينـة سـيلفن لإنتـاج القماش للدولة وبصفة أساسية للجيش العثماني ، وكانت قوة العمل الرئيسية فيه من الغجر بنفس المدينـة حيث كـان البلغـار فـي ذلك الوقت مـن الحـرفيين الصـغار والتجـار أو منخـرطين فـي

العمل الزراعي ، وكانت الأيدي العاملة الوحيدة غير المرتبطة بأعمال بعينها هي قوة الغجر (رجال – نساء – وحتى الأطفال) وبالتدريج قامت طبقة عاملة ثابتة من العائلات الغجرية مرتبطة بصناعة النسيج التي ازداد عددها بعد تحرير بلغاريا بقدر له شأنه عام ١٨٧٨م عندما تم افتتاح عدد من المصانع الجديدة في سيلفن فأصبحت مركزاً لصناعة النسيج .

* الإحياء القومي لشعب البلقان :

يجب أن نولى تقديراً خاصاً لمركز الغجر في الولايات الجديدة في البلقان التي بزغت وسط أراضي الإمبراطورية ، وكان القرن التاسع عشر هو قرن القومية لأهل البلقان عندما ظهر عدد من الدول الجديدة بعد سلسلة طويلة من الانتفاضات والحروب (خاصة بين تركيا وروسيا) ومن هذه الدول بلغاريا واليونان ومونتينجرو والصرب في حين تخلصت محليات مولدافيا وفالاشيا من الإمبراطورية ، وظلت تلك الدول – على أية حال – في مدار الإمبراطورية العثمانية وارتبطوا بها لفترة طويلة كولايات وبالضرائب السنوية أو بتواجد الحاميات التركية واحتفاظها بملامح كثيرة للتقاليد التاريخية والثقافية العثمانية ، وحتى بنيتها الإدارية عكست ذلك الميراث .

وقد شارك الغجر في نضال التحرر القومي لشعب البلقان إذ ساهم كل من ايليا بلافيتش

"الغجري" وأخيه مويو (الذي توفى عام ١٨٠٧م) في انتفاضات الصرب ضد العثمانيين عند بدايات القرن التاسع عشر ، وهناك دلائل تشير إلى ارتباط جماعات أخرى من الغجر بهذه الحركات كما كانت هناك حالات أصبح فيها الغجر ضحايا للأهالي المتمردين والمحليين مثلما حدث في انتفاضة أبريل ١٨٧٦م في بلغاريا ، عندما قام المتمردون بذبح كل سكان حي الغجر رجالاً ونساءً وأطفالاً في مدينة كوبريفش تيتسا .

* ضريبة الرأس في صربيا :

كان أمثلُ نموذج أفرز تأثيراً قوياً على تقاليد الإدارة العثمانية وظَل تأثيره نافذاً في الولايات الجديدة بالبلقان هو الحالة المسماة ضريبة الرأس على الغجر في الصرب ، بعدما حصلت صربيا على درجة من الحكم الذاتي عام ١٨١٢م ، ظلت الدولة الجديدة بقيادة الأمير ميلوش أوبرينوفيتش مرتبطة بالإمبراطورية بواسطة عدد من الالتزامات الضريبية والعسكرية ، كما استمرت الممارسات القديمة في تحصيل الضرائب والتي تعود إلى عهد الإمبراطورية العثمانية بما في ذلك ضريبة الرأس الخاصة بالغجر والمسماة آراش في لغة الصرب .

وقد احتفظت الصرب بضريبة الرأس المقررة خصيصاً من أجل الغجر ، لأولئك الذين يقيمون بشكل دائم في مكان واحد كانت الضريبة ١١ جروت سنوياً لكل فرد عمره ما بين ١٥ إلى ٨٠ سنة ، في حين كانت تلك الضريبة ٤ جروت للأطفال ، وبالنسبة لأولئك الذين ينتقلون من مقاطعة لأخرى (أي أولئك الذين يعيشون حياة البدو والترحُل) فقد فُرِضت عام ١٨١٨م بمقدار ٢١ جروت لكل فرد سنوياً ، وهكذا كانت الفكرة وراء النظام الضريبي في صربيا – كما كانت في النظام العثماني – تستهدف تشجيع الغجر على الاستقرار ، أما الغجر الذين عاشوا في بلغراد فقد أعفوا من تلك الضريبة لكن كان عليهم أن يسددوا باقي الضرائب مع السكان المحليين .

والرقم الفعلي لمبلغ الضريبة الواجبة السداد تغيّر عدة مرات وعلى سبيل المثال عام ١٩٢٧م أصبحت تلك الضريبة الخاصة ٨ جروت لكل طفل بين سبع سنوات إلى خمس عشرة سنة ، في حين يسدد الأفراد فيها بين ١٥ سنة إلى ٨٠ سنة ٢١ جروت ، وبعد عدة سنوات من ذلك التاريخ فرضت الضريبة على الأفراد بين سبع إلى أربع عشرة سنة بمقدار ٨ جروت لكل واحد ، ومن ١٤ سنة حتى الزواج ١٢ جروت ومن الزواج حتى الوفاة ٢٤ جروت سنوياً .

وكمبدأ ، وجب أن تؤدى تلك الضريبة الخاصة المفروضة على الغجر إلى إعفائهم من أية التزامات ضريبية أخرى نحو الدولة ، وهكذا فرغم اتسامها بصفة التمييز ، إلا أنها تحولت إلى امتياز ضريبي خاص ومنذ ذلك الحين كانوا يدفعون ضرائب أقل مما يدفعه السكان من الصرب.

وفى مجال التطبيق لم يكن ذلك الإعفاء من كل الضرائب الأخرى يمثل تكريم إذ أدى ذلك إلى تقديم الغجر لعدد من الشكاوى إلى الأمير ميلوش ، وأكثر حالات شكاواهم سوءاً كانت تلك التي أُسئ فيها استغلال جامعي الضرائب (أراكلياس) للغجر ، وهم غير الغجر الذين عيّنهم الأمير خصيصاً لجمع الضرائب ، وكانوا يحصلون مبالغ من النقود أكبر كثيراً من الضريبة المقررة ، وهو ماكان محلاً للعديد من الشكاوى المقدمة للأمير الذي كان لا يبدى اهتماماً بها حيث كان يعين خلصاءه في ذلك المنصب مكافأة لهم ، وعلى كلٍ أبدى الأمير – أحياناً – طيبة وأعفى بعض الغجر من سداد تلك الضريبة الإضافية .

وبخلاف تحصيل الضرائب ، كان لجامعي الضرائب هؤلاء عدداً من المهام الأخرى وعلى رأسها تطبيق العدالة بين الغجر، وتنفيذ العقوبات والغرامات والواجبات الأخرى، فمثلاً جاء في فرمان الأمير الصادر عام ١٨١٩م ،

إن محصل ضريبة الرأس الخاصة بالغجر سيميون لو جوفيت قد تم تعيينه "حاكماً أعلى لكل الغجر" ، ويمثل الغجر في كل شؤونهم وليس لأي شخص التدخل في أموره . وقد أثار محصلو الضرائب خوفاً كبيراً بين جماعات الغجر ، وكانوا شخصيات معروفة جيداً في المجتمع الصربي ، والأكثر شهرة بينهم هو آخرهم في تولى تلك الوظيفة وهو أتاناسى يوفانوفيتش (المدعو تاسا أراكليا) وكان لمساعديهم وكتبتهم – الذين احتفظوا بقوائم التزامات الغجر من الضرائب محلياً – حقوق وواجبات محصلي الضرائب أنفسهم ، في حين كان عُمَدُ الغجر معينين من قبل ذاتهم في المدن والمجتمعات المحلية ، وكانت وظيفتهم مماثلة لمهمة زعيم الغجر قديماً (والمسمى شيرى باشا المسئول عن كل جماعة خاضعة للضريبة) في الإمبراطورية العثمانية ، وكانوا يساعدون في جمع ضريبة الرأس - وتُدفع مقدماً ثم تُسترد فيما بعد من الغجر - وكان لهم بعض السلطات الإدارية المحدودة على الغجر ، فهم يستطيعون مثلاً فرض غرامات واتخاذ قرارات في النزاعات الصغيرة .

كانت السلطة القانونية لجامع الضرائب من الغجر محدودة بما يتواءم مع دستور ١٨٣٨م ونتيجة لهذا – وفى العام التالي مباشرة – قررت وزارة الداخلية أن القضايا التي تتضمن

غجراً يجب أن تجرى أمام محكمة الإقليم وأن على محصل الضرائب ألا يتدخل في تلك القضايا .

وبدأت ضريبة الرأس المقررة على الغجر في الزوال حيث أصدر مجلس الوزراء قراراً أكده مجلس الدولة أن الغجر المستقرين في منازل ثابتة سيتم إعفاؤهم من سداد ضريبة الرأس وسيتم منحهم نفس حقوق مواطني الصرب الباقين ولكن عندما استفسر المجلس الإقليمي لمدينة سميديريفو عما إذا كان ذلك ينطبق على الغجر المسلمين ، أجابته وزارة المالية بان أولئك الغجر يجب أن يستمروا في دفع ضريبة الرأس (موضحة أن سياستهم ليست فقط لتشجيع الاستقرار والتوطن وانما لتشجيع التحول إلى المسيحية الأرثوذكسية كذلك) ..

ولم تجر عمليات تغيير الحالة المدنية أو الالتزامات الضرائبية للغجر بيسر وسهولة، رغم أن قانون المواطنة الجديد الصادر عام ١٨٤٤ منح الغجر نفس حقوق المواطنين الصرب إلا أن السلطات المحلية غالباً ما فضلت الالتزام بالممارسات القديمة (وكذلك فعل بعض الغجر حيث قد يعنى ذلك سداد ضرائب أقل) وفى عام ١٨٥٣ أكد قرار خاص أن على الغجر المقيمين دفع ضرائبهم للسلطات المحلية كما يفعل باقي المواطنين في حين يستمر الغجر

الرحل في دفع ضريبة الرأس التي أصبحت – عندئذ – ٢٤ جروت للبالغين المتزوجين و ١٢ جروت للبالغين غير المتزوجين و ٨ جروت للأطفال بين ٨ إلى ١٤ سنة وهو ما كان يجب سداده للسلطات المحلية في قرية معينة ومحددة حيث وَجَب عليهم أن يسجلوا فيها، أما أولئك الغجر الذين تدفع بهم طرق حياتهم المتنقلة إلى خارج حدود وحداتهم الإدارية فيجب إصدار جوازات سفر خاصة لهم .

وبذلك القرار تداعى بنيان جامعي الضرائب من الغجر، ومع تأكيد ذلك بفرمان خاص أصدره الأمير عام ١٨٥٤ م، تم توجيه عدد من الشكاوى إلى أمير صربيا توسل فيه الغجر أن " حريتهم يجب ألا يتم سلبها منهم " وأن النظام السابق يجب الإبقاء عليه لكن تلك الشكاوى ذهبت هباءً .

استمر الغجر الرحل في دفع ضريبة الرأس حتى بعد عام ١٨٥٥ الذي حدث فيه الإصلاح المالي في صربيا وبعد التشريع الضريبي الجديد الذي صدر عام ١٨٦٤م . وقد أكد الدستور الصربي لعام ١٨٦٩ م المساواة في الحقوق لكل الغجر لكن في نفس الوقت (مع القانون الانتخابي) لم يسمح للغجر الرُحّل بالمشاركة في انتخابات أعضاء البرلمان لأنهم لم يكونوا دافعي ضرائب عاديين وإنما هم يدفعون ضريبة الرأس المقررة للغجر، ولم

يتوقف هذا التمييز إلا بعد صدور قانون الضريبة المباشرة لعام ١٨٨٤ م الذي وَحّد معايير الضرائب أمام كل الرعايا الصربيين ولم يعد هناك تمييزٌ للغجر كفئة خاصة من السكان حيث اكتسبوا في النهاية نفس الحقوق المدنية التي تخص المواطنين الآخرين .

* الغجر والمؤسسات الدينية:

صاحب نفس وقت التحول في الحالة المدنية للغجر في صربيا، تحولٌ آخر هو قيام العديد منهم بتغيير أسمائهم من أسماء مسلمة إلى مسيحية ومعها أيضاً تغيير في العقيدة، وقد تم تشجيع ذلك بواسطة السياسة الضريبية وغالباً ما كانت تُدار وتُنَفذ بمبادرة من السلطات المحلية، وهى السياسة التي طُبقت أيضاً على الأراضي الجديدة، في أقاليم نيش وفرانى مثلاً التي منحها مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ م لصربيا، حيث أصدر أسقف تيموك عام ١٨٩٢ م أمراً سرياً يُلزم السلطات المحلية " بالتعاون " حتى يقبل " الكفرة " الدين المسيحي .

وبشكل عام كانت المؤسسات الدينية المسيحية متشككة إزاء الغجر وقال الأسقف البلغاري في حفل ديني أقيم عام ١٨٦٠ م " إنها خطيئة كبرى أن نهب الزكاة للغجر والملاحدة .."

وهناك اتجاه مشابه يكشف عنه وصف حادثة مأساوية يسجله اليكساندر باسباتى

في عام ١٨٦٦ م فى قرية صغيرة بالقرب من كورلو واسمها ويجيرفى فيما بين القسطنطينية وادريانبول كانت مجموعة من الغجر يخيمون مع دببتهم، وبأسمائهم (الإسلامية كانوا يعتبرون مسلمين في بوهيميا) وذات ليلة وبينما كان واحد منهم اسمه مصطفى يهم بعبور النهر ومعه دبه، انغرس حتى صدره وسط الرمال المتحركة فصرخ طالباً النجدة وسُمعتْ صرخاته في القرية المجاورة، وحيث أن السكان افترضوا أن تلك الصرخات قادمة من لصوص، لم يتحرك أي شخص للمساعدة، وتركوه للموت دونما معونة، وذهب أصحابه إلى القسيس ليقوم بدفنه لكنه رفض دفن الغجري الميت لأنه علم أن ذلك الرجل كان يسمى مصطفى حتى اليوم السابق لموته، لكن أصحابه أوضحوا أن اسمه تيودور وفى النهاية عندما لم يكتشف الأتراك أية آثار للاختتان بجثته أعادوه على أنه مسيحي إلى أهل القرية ودُفن وفقاً للطقوس المسيحية . وبغض النظر عن تعاليم الكنيسة ، ظلت اتجاهات المسيحيين من شعب البلقان نحو الغجر واحدةً من النماذج العرقية المتشددة ، كما يتضح من البرقية التي أرسلتها قرية ايكشى سو في مقدونيا إلى جريدة "نوفينى" الصادرة في استانبول عند نهاية القرن التاسع عشر :

" تخطركم هذه القرية بواقعة مثيرة تتعلق بغجري اسمه ستيفان . لم يكن قادراً على إيجاد امرأة تحبه بصورة تكفي لقبولها الزواج به ، لذا ذهب إلى قرية أوليشتا ومعه أحد أصدقائه ، وهناك أخفيا أصلهما الغجري وبذلك وجدا امرأة غير غجرية ، تزوجها ستيفان وأخذ زوجته معه إلى ايكش سو ، وفي خلال أيام قليلة ذهب والد العروس لزيارتها وما أن اكتشف أن صهره غجري ، حتى جمع الوالد أشياء ابنته - بناء على نصيحة الناس – وأخذها إلى القسيس المحلي ، إذ كان من العار والمخالف للتقاليد أن تتزوج امرأة غير غجرية برجل غجري حتى لو كان الأخير مسيحياً وبعد أيام قليلة – أخرى – تزوجت المرأة برجلٍ جديد دون أن تُنهي الزيجة الأولى بشكل قانوني ، وتركوا الغجري دون زوجة ، والبرقية تركز على أن ما حدث لم يكن قانونياً لأن الزواج الثاني تم تنفيذه دون حل عقدة الزواج الأول".

وإلى مدى بعيد ، كان اتجاه المؤسسات الدينية الإسلامية نحو الغجر مماثلاً لاتجاه الكنيسة الأرثوذكسية، إذ حتى اليوم يدفن الغجر في البلقان عادة في أجزاء منعزلة عن مقابر المسلمين .

وتنتشر بعيداً في البلقان حتى اليوم الحكمة التركية القديمة، التي تقول يوجد في العالم اثنان وسبعون عقيدة ونصف عقيدة ، وذلك النصف

هو عقيدة الغجر ، ومثل تلك المقولة لدى المسيحيين تجعل من العقائد سبعاً وسبعين عقيدة ونصف عقيدة والنصيب الأخير للغجر .

* الاتجاهات الاجتماعية نحو الغجر :

الوضع الذي اتخذته المؤسسات الدينية تجاه الغجر كان في نفس خط اتجاهات الناس الاجتماعية السلبية ككل، وبقدر ماهى بين الأتراك العثمانيين تجدها كذلك بين الرعايا المحليين من سكان البلقان ويشير إلى ذلك آمى بويه :

إن الأتراك كالمسيحيين تماماً يحتقرونهم " أي الغجر" ولذلك لا تجد بين السابقين ولا الأخيرين من يرغب – أبداً – في الأكل والشرب مع الغجر على نفس المائدة ".

وقد يكون أوجز وأبلغ تقييم للنموذج السلبي للغجر الذي يحمله السكان الآخرون في ظل الإمبراطورية العثمانية هو ما قاله قنسطنطين جيريك .

" محتقرون من الأتراك ومكروهون من المسيحيين ينظرُ السكان المحيطون إلى الغجر ككل مكان آخر – على أنهم غير أنقياء، ومن جنس مختلف أخلاقياً وعقلياً "

وقُدُماً نستطيع أن نؤكد أنه ولمدى بعيد ظلت الاتجاهات نحو الغجر ثابتة لا تتغير في البلقان حتى اليوم رغم أن كل فرد مقتنع تماماً بوجود

تسامح كبير بادٍ تجاه المجموعات العرقية الأخرى .

وقد أسفرتْ الآراء الاجتماعية للجماهير عن طبيعتها في مجرى الحياة اليومية ، كما هو واضح في العلاقات بين سكان الإمبراطورية المحليين وبين الغجر ، وهى علاقة – غالباً – ما أدت إلى صراعات كان يتم حلها على حساب الإضرار بالغجر ، وقد جاء وصف أحد الأحداث التي جرت في إقليم فارنا في النصف الثاني من القرن العشرين تفصيلاً فيما كتبه قنصلا بريطانيا تشارلز بروفى وستانيسلاس كلير :

" يكسب الغجر عيشَهم أساساً بإضافة حصيلة جهودهم من العمل الحرفي إلى ما يبيعونه من منتجات قطعانهم الصغيرة من الزبد واللبن في المدن ، وعلى أية حال ، طالما هم ليسوا ملاكَ أرضٍ ، كان عليهم شراء الدقيق لسد احتياجاتهم وشراء الحبوب لحيواناتهم من المسيحيين ، وقد رفع القرويون أسعارهم فأصبحت كل سلعة تباع غالية الثمن جداً ، وكان الدفع نقداً أو لقاء عمل ، وعندما يقدم الغجر الثمن عملاً بجهدهم ، كانت الفائدة تزداد ارتفاعاً حيث كان يمكن تخفيض أجر عمل الغجر بصورة عشوائية ، من هنا كان الغجر مصدراً جيداً لانتفاع القرويين .

وعلى كل ، كانت قطعانهم ترعى الحقول عندما يحل الربيع ، فيمكنهم أن يبيعوا زبداً ولبناً أكثر في فارنا وهكذا يكسبون أكثر ويصبحون أقل اعتماداً على القرية ، عندئذ استدعى سكان القرية المحليون قادتهم لعقد اجتماع قروا على أثره إبعاد الغجر ، وحيث كان الغجر يقومون بتربية قطعانهم في المراعى دون دفع ثمن لتلك الميزة ويشترون قليلاً مما تنتجه القرية في نفس الوقت – ويجب أن نضيف في هذا الصدد أن المسيحيين أنفسهم لا يدفعون شيئاً لقاء استخدام تلك المساحات الشاسعة من الأراضي بمراعيها - لكنهم أثاروا ضجة لاستخدام الغجر لتلك الأراضي .

وقد انتهى الضغط الذي تلي ذلك "بطريقة رقيقة !!" فذات ليلة ودون سابق إنذار اندلعت النار في منازل الغجر حتى يُضطر المساكين إلى الرحيل ، وفى الشتاء عاد الكثير منهم وسألوا إذا ما كانوا يستطيعون الإقامة في مكان مختلف بالقرب من القرية ، ومنذ ذلك الحين أصبح الشتاء بالنسبة لسكان تلك القرية "ديرى – كوى" أكثر فصول السنة ربحاً بسبب وجود الغجر ، فمنحوهم الموافقة – بكل سرور " .

وقد شكا الغجر للسلطات العثمانية دونما مجيب ، وكان تفسير ذلك "الصمت" أن لديهم تعليمات من استانبول بأن يكونوا حذرين كي لا يؤلموا البلغاريين .

* بداية الخلاص للغجر :

شهد القرن التاسع عشر مرحلة جديدة في تطور وعى الغجر بأنفسهم في البلقان عندما بُذلت المحاولات الأولى لتناول مسألة خلاصهم الاجتماعي . ففي عام ١٨٦٦م قام الكاتب البلغاري المعروف بيتكو راشيف سلافيكوف بنشر مقالته "الغجر" في جريدة تصدر في استانبول تدعى "جايدا" ، وزعم في المقالة أن الغجر انحدروا من مصر القديمة وأسند إليهم عملية جلب إنجازات علومهم إلى اليونان القديمة ، كما اعتقد سلافيكوف أن لغة الغجر قد أثرت على اللغة اليونانية ، وفسر اسم "أثينا" باشتقاقه من كلمة اتسنجانى ، كانت الخلفية العلمية للمقالة ضعيفة ، وكان دافعها إلى حد كبير هو المشاركة في النضال الاجتماعي لاستقلال الكنيسة البلغارية لتنفصل عن سيطرة بابوية اليونان ، وكانت الجريدتان جايدا ومقدونيا القوة الدافعة وراء هذه الحركة وكان بيتكو سلافيكوف أحد قادتها . وكان للمقالة تأثيرٌ ذو قيمة على زعماء المجتمع الغجري وبعد عام من ذلك التاريخ نشرت جريدة مقدونيا التي كان يحررها بيتكو النص التالي في "خطاب إلى المحرر" وقعه من أَسْمَى نفسه "مصري" من بريليب في مقدونيا :

" بريليب – ٣ يونيو ١٨٦٧م

عزيزي محرر جريدة "مقدونيا"

كل شخص يعلم السبب في أن المصريين هم أكثر الناس امتهاناً بين كل المسيحيين ، لأنهم لا يتبعون أسرار العقيدة الأرثوذكسية بدقة أو على الأقل ليس بالطريقة التي يريدها منهم المسئولون عن النظام من الفاناريون[٤] [(١)]، وهم التابعون لبابوية اليونان الأرثوذكسية ، وسوف تدرك ما وراء ذلك فيما بعد والآن لو أنك سألت أحداً من الفناريوتس هؤلاء من هم ؟ ولماذا وصلوا لتلك المناصب ؟ لسوف تسمع الإجابة المعتادة بأنهم حراس العقيدة وأنهم الوحيدون أصحاب الحق في ذلك ، لأنهم أتباع حواريّ المسيح ، ولو تأهبت لفحص أمورهم سوف تكتشف أنهم مدمري العقيدة وأحكامها مستغلين براءة وبساطة القبائل الأخرى ، وهم يستخدمون الدين لإيقاف التقدم وإبقاء أصحابه خاضعين ومستعبدين

وبذلك يدمرون عدالة إلهنا التي منحها لكل إنسان على الأرض ممن تعمدوا باسمه "لكم جميعاً يا من تعمدتم باسم المسيح لقد ألبستم أنفسكم المسيح " (سفر الجالاتيين–الآيات ٣- ٢٧) وهم يصرخون بأن علي كل الشعب المؤمن بالأرثوذكسية أن يخضع للسلطة

---

[٤] Phanario مسؤلون يونانيو الأصل وحكوميون يعملون تحت إمرة الأتراك ويعيشون بحي اسمه "phanar" في القسطنطينية . المترجم

الروحية لأولئك المسئولين اليونانيين وليس لأي أحد أخر أن يحوز سيادتهم الروحية . وفي إطار ذلك حدث الكثير من الأخطاء ، ومازالت الأخطاء مستمرة حتى اليوم نحو البلغاريين الذين يحمون حقوقهم بالعدل ، تلك الحقوق التي منحت لهم ليس فقط من مبادئ الحواريين و أنما بسبب أنهم كانوا يحوزون بعضا منها في الماضي . لكن اليونانيين يصرون علي عنادهم ودعواهم دون أن يدركوا أن الزمن قد تغير ولكنهم بانتمائهم للسلافيين روحيا يزعمون أن لديهم الحق في تنوير الناس ثم يسرقونهم جهارا ، كيف يمكن ألا يشعروا بالخزي عندما يصرحون بأمور مخجلة ، خاصة أن أبسط الناس يعلم أن ليس بين حواري المسيح – الذين كانت مهمتهم هداية الناس بعقيدة المسيح –

من كان اسمه هيلين[٥]، وهذا يبين بوضوح أن الأمر ليس مقصورا علي الهيلينيين لهداية الناس إلي فضل الروح القدس ، وإذا ما كانوا كما يدعون هم " فرح الله " وكل إنسان أخر مشكوك به ولا يستحق تلك الدرجة ، فلماذا أذن

---

[٥] هيلين EAA بمعني يوناني ويقصد الكاتب أن رتبة القساوسة ورجال الدين ليست مقصورة علي كل من هو يوناني ، وذلك من باب السخرية .. المترجم

تكلم الحواريون بكل اللغات عبر الروح القدس وليس باللغة الهيلينية " اليونانية " ويعظون كما أخبرهم المسيح (أذهبوا لكل العالم وعظموا وبشروا بالأخبار السعيدة لكل الخلق) – (مرقص ١٥-١٦) لا إلي اليونان " وحدها" ، والآن وقد رأينا أن اليونانيين لم يتم اختيارهم بكرم الروح القدس لهداية الناس ولا هم " فرح الله " أو أحبهم إليه ، كما يقولون ويدَّعون خاصة ، فلماذا – إذا ما كانوا أولياء مخلصين لتعاليم المسيح – يقولون أن لهم الحق وحدهم في السيطرة علي الناس الأرثوذكس ولماذا يعاملونهم كعبيد أو ما هو أكثر- وبصورة مخجلة - يعاملونهم كمتاع من أملاكهم ؟

ودعنا نكشف موقف الكنيسة اليونانية الضعيف، إن البلغار والمصريين – يقصد الغجر – وصلوا إلي تلك الحالة من البؤس والمهانة حتى أننا لا يمكننا أن نجمع أطراف شجاعتنا ونقوم بتعليم أنفسنا ، حيث دفعتنا أحكام الكنيسة إلي اليأس حيث بينت لنا عبر مجلسها " المقدس " أننا لسنا مسرة الله ، ولماذا يلجأ المصريون إلي عقيدتين بل ثلاث في نفس الوقت ؟ ذلك لأنهم – ورغم أنهم مسيحيون – غير مسموح لهم بالمشاركة في أسرار العقيدة وبقية المسيحيين يرتابون فيهم ، وهذا السبب في لجوئهم لديانة أخري رغم احتفاظهم بديانتهم الأولي ، وبهذه الصورة ولكونهم مشتتين

ويائسين لا يستطيع المصريون الاحتفاظ بمجتمع خاص بهم ولا الاهتمام بتعليم أنفسهم .

وسوف تجدون أن هذا هو ما يحدث تماما للبلغاريين، وهناك مقالة نشرت بجريدة جايدا (العدد ١٥ السنة الثالثة) أثبتت أن أصولنا تعود لمصر [٦]

وهذا واضح من المهارات التي نملكها وكذلك من لغتنا ومن مسمانا Egyptian-gypsy لكننا دفعنا دفعا إلي اليأس وتحولنا إلى ما نحن عليه الآن ، وكيف يمكن أن نكون أنصاف مسيحيين وأنصاف غير مسيحيين في عقيدتنا ؟ وعلي أي مبدأ – وفقا لما قاله قداسة الأب – يصرح بأن المصريين لا يشكلون سرورا للرب ؟ ، لو أن قداسته بني دليله هذا علي حقيقة أن المصريين قد قاموا بتعذيب الإسرائيليين ذات مرة – أولئك الذين ارتكبوا الخطيئة ولم يقبلوا الديانة المسيحية، ألا يمكنه أن يرى ما يقوله الإنجيل " لذا فأي إنسان يكون في المسيح ، سيخلق من جديد ، فالقديم ذهب ، والجديد يأتي ،(كورنثيا – ٢، ٥ ، ١٧) فان الأمر لو لم يكن كذلك لكان اليهود والحواريون أولي بالشك والريبة طالما كانوا تقريبا أعداء الله

---

[٦] مع كامل التقدير للأصول العرقية للغجر إلا أن المذكور هنا ليس بحثا علميا وأنثروبولوجيا لأن الدراسات العلمية أثبتت أن أصول الغجر تعود إلى وسط آسيا ارتحلوا غرباً هروبا من التتار . المترجم

، الذي عوقبوا من أجل مخالفته مرات عديدة بل أنهم قتلوا الرسل الذين بعثهم الله وصلبوا ابنه المحبوب ،"لكن المسيح عيسي جاء إلي العالم لينقذ الخطاة، "(تيموثي ١- ١:١٥) .

وأيا ما كانت الطريقة التي حدث بها ذلك ، سواء من الجهل أو من عداء وأوهام ذاتية شعر بها قداسته تجاه المصريين،ولأجل معاقبتهم منعهم من أداء شعائر الدين ، كيف يمكن لأتباع حواريي المسيح أن يعترضوا علي ما حدث ؟ نعم ..... فهم سوف يعبرون عن بالغ أسفهم ، لأنهم لا يستطيعون تغيير أدني أمر مما أورثناهم أياه !، وكنا لنتفق معهم في ذلك لو كانوا تابعين مخلصين للحواريين ، لولا أن ذلك ليس فقط لا يمثل واجب الحواري الوفي وإنما هو علي عكس ما يجب أن يفعله ، بالإضافة إلى أننا نري أن كل ما يؤدي لفائدة أولئك اليونانيين بغض النظر عمن ابتكره أوحي به فهم يقبلونه علي الفور ، ولا يعترفون بما لا يفيدهم ولا بأي شيءٍ لايمايز بين الناس داخل إطار الدين المسيحي ، رغم أن المسيح عيسي قد نهى عن ذلك التمييز بنفسه ، وبتلاميذه حين قال " لذا لا يوجد اختلاف بين اليهود وبين أبناء الأمم ولا بين العبيد والأحرار ولا بين الرجال والنساء وكلهم واحد في اتحادكم بالمسيح عيسي " (جالاتيا ٣ ٣: ٢٨) والآن هيا نري لماذا لا يمنح اليونانيون الحقوق الدينية للشعوب الأخرى

ولكن يقومون بتدميرهم بعنف ، وأنا لا أملك القدرة علي البحث في أسباب معاملة اليونانيين للبلغار بهذا الأسلوب ، وعلي كل حال فأنا هنا لغرض أخر مختلف أريد أن أبيّن ما يحدث مع المصريين ، الذين لا يوليهم أحد أي اهتمام ، وأريد أن أوضح كيف ضاع إيمانهم وكيف أدي ذلك إلى مرضنا الأخلاقي ، لقد ثبت أن الناس في اليونان عام ١٨٠٠ قبل الميلاد كانوا همج ومتوحشين يعيشون في الغابات والأكواخ والكهوف ويأكلون الجذور والنباتات البرية ولا يعلمون شيئا .عندما كان اليونانيون بلهاء ، وكما نقول ، يقتاتون علي المرعي – أي كانوا متخلفين – وصل المصريون إلى درجة عالية من التعليم والثقافة .لكن أولئك أحدثوا الاضطرابات في مصر، وبسبب ذلك أبعدوا ألفا منهم وارتحلوا إلى اليونان، وجلبوا معهم فنونهم القديمة وأبجديتهم، وبفضل المحاولات الدؤبة من المصريين لتعليم اليونانيين المتوحشين،تم ترويضهم واختلطوا بالتدريج مع زوارهم المثقفين واستقرالاخرون في أثينا حيث اختاروا كيكروبس زعيما لهم وأثينا عاصمة لهم حيث اكتسبوا اسم الأثينيين وانسجموا ووصلوا إلى درجة تزيد أو تقل في الكمال الثقافي مقارنة بين الشعوب الأخرى التي تعيش ذلك الزمن، وهكذا انتشرت الاستنارة بين الشعوب الأخرى وهو ما يفخر به اليونانيون اليوم بقولهم أنهم

أضاءوا العالم بثقافتهم، ولعلمهم أن العالم سوف يكتشف آجلا أو عاجلا أن ذلك التنوير لم يكونوا هم مصدره قرروا مهاجمة عقيدة المصريين الذين سيصبحون عند ذاك مكروهين من كل فرد وبالتالي سيغرقون في يأس كبير ثم يختفون من وجه الأرض ، وقد ألح اليونانيون في ذلك وبسببهم منع القديس جريجورى المصريين من الشعائر فكيف لأولئك اليونانيين ألا يشعروا بالعار حينما يصيحون في كل العالم بأنهم السبب وراء انتشار التنوير في أوروبا لهذا السبب نفسه على الأوربيين أن يكونوا شاكرين لهم وأن يساعدوهم عند الحاجة ؟ عليهم أن يخجلوا و أن يخرسوا ، فإذا كان لهم أن يفخروا على الأوربيين بذلك فعليهم أن ينحنوا أولا وأن يقعوا سجدا أمام أقدامنا ، لان عليهم أن يقروا بأننا قد منحناهم التنوير " و الثقافة " وأن يقوموا بواجبهم وهكذا يعطون مثالا في الإخلاص للآخرين .

لتوقيع "مصري "

ويعد هذا الخطاب وثيقة قيمة تبين تطور الوعي الاجتماعي بين الغجر في بلغاريا في القرن التاسع عشر وكاتب الخطاب بجانب كونه من المتعلمين جيدا بالنسبة لعصره له معرفة كبيرة بكتابات الكتبة و بالصحافة أيضا ويمكن فهم هذا الخطاب بدقة فقط في إطار التطور

الاجتماعي المذكور سابقا في بلغاريا في مواجهة التبعية الدينية لليونان (البطريركية) وتعليماتها للكنيسة البلغارية التابعة لها ويعتبر ذلك المصري " المجهول " وهذا الصراع الكنسي حركة لحماية حق كل شخص في المساواة الدينية والمدنية وشعر المؤلف باتجاهات الاحتقار المتكرر للغجر التي كانت سائدة في المؤسسات المسيحية ذلك الوقت واستعرض مدى ظلم ذلك الاتجاه، ولكي يدافع عن الحق التاريخي للمصريين في حيازة مجتمع خاص بهم والاهتمام بتعليمهم بأنفسهم لجأ إلى جدل شبه علمي وكان في تلك الحالة مأخوذ بمقالة سابقة مقتبسة من جريدة جايدا وكانت المصدر الوحيد المتوفر أمامه ، ويوضح الخطاب بداية مرحلة جديدة من تطور الوضع بين بعض أعضاء مجتمع الغجر في البلقان خلال القرن التاسع عشر ويتشابه مع تلك المرحلة الجديدة عملية أخرى هي الخروج من الإطار " الداخلي " للمجتمع التقليدي بحثا عن مكانة مساوية في الواقع الاجتماعي الثقافي " الخارجي " الجديد . إلا انه يخضع لمعايير وقيم الغجر ، وتحدد الظروف التي تعيشها البلقان شكل هذه الأنشطة الاجتماعية الجديدة – ومثل باقي شعوب البلقان ، كان الغجر يسعون بهمة شديدة لإيجاد ماضٍ باهرٍ لهم بالإضافة إلى خلق ميثولوجيا تاريخية قومية لدعم توجههم خلال

نضالهم للخلاص المدني ويبقى سؤال واحد مفتوحا.. من كان ذلك المصري كاتب الخطاب ؟ رغم أنه يبدو غير موجود في الواقع إلا أنه في النهاية تتضح إمكانية تميزه ويمكن البحث عن تفسير لذلك في المادة العرقية التي نشرها ماركو تسيبينكوف مع نهاية القرن التاسع عشر ففي وصف لنقابات مدينة بريليب يعلق على وجود نقابات متعددة للغجر منها (صانعو الحدوات و صانعوا الكمان و الحمالون) الذين كانت لهم أعيادهم الدينية الخاصة مثل عيد القديس اتناسيوس وعيد القديس انتونى والسبب وراء كل ذلك هو الحلاق الغجري (اليانو مشيف) إذ كان لذلك الحلاق زبائن ذوو حيثية يحضرون إليه في محل عمله و توصل بالتدريج إلى معرفة خلفية أولئك الزبائن جيدا و لم يخجل من كونه " مصري – غجري " لان تلك الكلمة اشتقت كما كان يشرح من اسم مصر و قد أمل ذلك الرجل أن يصبح قسيسا للغجر ومرت سنوات عدة وهو يمتلئ بالأمل في تحقيق تلك الأمنية وظل يعمل وسط الغجر ناصحا إياهم بعدم شرب المسكرات وبضرورة الالتزام بالسلوك الكريم وبعدما اكتسب احترام الغجر اقنع ثلاث نقابات بالاحتفال بعيد القديس انطونى وبمرور عامين أو ثلاثة نجح في أن يصبح قسيسا فى تساريجراد عاملا بخدمة أسقف بلغاريا " نستطيع أن نتيقن تماما أن ايليا نوشيف

كان هو المصري[٧] الذي كتب الخطاب لمحرر جريدة مقدونيا وللآسف لم يعلم أحد أيَ شئٍ عن ذلك الشخص بعدما أصبح قسيسا لكننا واثقون أنه أصبح بين أوائل القادة لحركة الخلاص المدني للغجر ليس فقط في مقدونيا والبلقان وإنما في كل العالم أيضا .

*أول شاعرة غجرية"رومانية":

ظل السؤال عما إذا كانت جينارانجيسيك- التي وصفها العالم النمساوي المجرى هينريك فون فيليسلوكى باعتبارها أول امرأة شاعرة من الغجر حقيقة أم لا- سؤالا بلا حل لفترة تعدت القرن وقبل أن يستطيع المرء إجابة السؤال، عليه أن يُقيّم الإرث العلمي الخصب لفيليسلوكى نفسه فخلال عصره لم يكن محترما في الدوائر العلمية واحتقره معاصروه لارتباطه بالغجر إذ عاش وتنقل معهم في عده مناسبات لفترات قصرت أم طالت وقد اتهمه عدد من المؤلفين – حديثا – آخرهم كان جوزيف ليبا بتزييف المادة العلمية التي سجلها وقام بنشرها و هي مادة نادرا ما يستخدمها الأكاديميون هذه الأيام فلو كان لنا أن نصدق فيليسلوكى نراه قد قابل جينا رانجيسيك فى سلوفاينا التي كانت عندئذ ضمن مواطني الإمبراطورية النمساوية-المجرية

---

[٧] أريد إعادة التنبيه أن كلمة مصر تستخدم هنا بديلا لكلمة غجري دونما مبرر تاريخي أو علمي . المترجم

عندما كانت عجوزا تماما ...وغير قادرة على جمع السيرة الزمنية الدقيقة لحياتها وقد ماتت في ١٧ مايو عام ١٨٩١ م وقد تم تقديم جينا له على يد القنصل المصري فى سومبور (فوى فودينا اليوم)الذي اشترى بعد وفاتها ثلاث كراسات من أقاربها تحوى ٢٥٠ قصيدة لها كتبت باللغة الرومانية التي هي لغة الغجر وقد نشر بعضا من هذه القصائد فيما بعد فيلسلوكى نفسه ودون تعليق على مدى صدقها أو أصالتها وبذلك يمكننا أن نلمس باختصار حياة جينا كما وصفها فلسلوكي إذ بنى تقريره على محادثات جرت له معها وحول شعرها ومعظمه يعد سيرة ذاتية .

وليس واضحا بدقه أين ومتى ولدت جينا إذ تعود ذكرياتها إلى ثورة المجريين عام ١٨٤٨م عندما كانت في سن العاشرة حينما كانت ذلك الوقت في مدينة فاراجدين في كرواتيا الآن.

ومن هناك ومع رجال قبيلتها من مجموعة الغجر الرحل " نيفيليا" هربت إلى صربيا لان الكروات أرادوا دفع الغجر للحرب ضد المجريين ، وعند عمر الثانية عشر تقريبا في بلغراد انفصلت عن جماعة الغجر التي كانت ترتحل معهم أثناء مطاردة الجنود الأتراك لهم بسبب الشك في سرقة قاموا بها وعبرت نهر الدانوب وهربت إلى المجر وقابلت جينا حينها تاجرا أرمينيا ثريا في القسطنطينية فتبنى الفتاة

وأخذها معه وهناك أرسلها إلى مدرسة أرمينية لمدة ثلاث سنوات حتى انه استأجر لها رجلا ألمانيا كي يعمل مرشدا لها وكان الأرميني يعيش مع أخيه الذي وقع في حب جينا فقام بخطبتها و بدآ العيش معا دون زواج وهنا بدأت جينا تكتب الشعر لأنها وفقا لما قالته في شعرها " أنا سعيدة جدا مع رجلي الشيخ " لكن سعادة الأسرة دمرها شاب ألباني أنيق اسمه " جريجور كوراهون " حيث أقنعها بالهرب معه بادعائه أن السلطان أمر بقتل الأرمنيين في القسطنطينية فذهبا إلى ادريانابول حيث أفادها ذلك الألباني باستحالة عودتها إلى منزلها لان زوجها قد سَرَق وقتله الألبانيون وإذا عادت يمكن أن يُقبض عليها باعتبارها شريكه في الجريمة .استقر جريجور وجينا فى ادريانابول وعاشا معا لسنوات أربع ،عمل خلالها جريجور كمرافق للقوافل مصطحبا إياهم إلى حدود المجر وفي الطريق كانت القوافل يتم نهبها بواسطة قطاع الطرق الألبان الذين كانوا على صلة بجريجور وتؤخذ الأسلاب إلى الأماكن الآمنة وسط الجبال الألبانية وخلال معظم تلك الرحلات كانت جينا بصحبة جريجور الذي أغرقها في الهدايا الثمينة لكنهما تعاركا بسبب محاولتها الهرب إلى القسطنطينية وجرحها في ذلك العراك بشدة وخرجت بسبب ذلك بندبة عميقة في وجهها ظلت معها بقية حياتها .

ندم جريجور على ما فعل ولكي يحل السلام بينهما وعدها بالبحث عن أقاربها في صربيا وإحضارهم لها فترك جينا لمدة ثلاثة أشهر مع رجل مجرى كان قد انتقل هناك بعد قيام الثورة المجرية ووقعت جينا في حب رجل آخر و هو صربي ذكرته في أشعارها لكن ذلك الصربي سرقها ثم هجرها وظلت جينا تهيم على وجهها حول ادريانابول لعدة أسابيع تعانى الجوع في أسمالها البالية ثم يحدث أن تقرر الذهاب بحثا عن زوجها الألباني جريجور الذي وجدته على مبعدة ساعات قلائل خارج البلدة وتوصل إلى أقربائها وكانوا قد أقاموا خيامهم بالفعل هناك وبدأت الاحتفالات فور عودتها وبعد عدة أسابيع من الاحتفال والعراك ارتضت جينا السلام مع جريجور الذي أهداها كثيرا من العطايا الغالية ثم رحلت الجماعة عبر بلاد البلقان لمدة شهرين وعندما وصلوا ألبانيا وجدوا جريجور عند شاطئ البحر فاصطحبهم جريجور إلى حدود العرب حيث منحهم نقودا وهدايا قيمة ابتاعوا بثمنها ٦٠٠ خنزيرا وعاشوا سعداء لفترة طويلة ورفضت جينا الذهاب مع جريجور والمجموعة وبقت جينا مع أهلها وكانت تقترب من الثالثة والعشرين من عمرها في ذلك الوقت وبدأت حياة بدوية متنقلة ثم تقابل سيدا مهذبا من فيينا يشترى منها قصائدها وخلال سنوات ترحلها لم تكتب شعرا وإنما قضت وقتها آملة أن يعود

إليها حبيبها الألباني وبعد عام لاحق عندما بيعتْ هداياه أو أُكلتْ هربَتَْ من أقاربها وذهبت إلى ألبانيا للبحث عنه فاكتشفت انه هارب إذ تطارده السلطات التركية بسبب السرقة ثم انضمت إلى أقاربه في إيطاليا مصحوبة بامرأة البانية صغيرة ، رحلت جينا نحو ايطاليا عبر البحر وبحثت عن جريجور في كل جنوب ايطاليا حتى وصلت نابولي ومن هناك ذهبت إلى سيراقوصه جزيرة في صقلية حيث قابلت يهوديا ثريا في رومانيا هو جاكوب هورنيشتين وكان تاجرا يصدر الخمر الصقلي إلى ألمانيا وفرنسا و انجلترا ويتاجر في المزخرفات والمزينات المستوردة من باريس إلى شمال أفريقيا حيث يملك أخوه الأصغر محلا في المغرب ،كان صديق جينا الجديد رجلا مثقفا له اهتمامات بالفنون و العلوم وخلال السنوات الست لإقامتها في صقلية صاحبته جينا في رحلاته التجارية حول البحر المتوسط وفي شمال أفريقيا استأجر جاكوب هورنشتين صبيا من الغجر اسمه بيتروس كانداليدس كي يصبح خادما لجينا وكان أجداد بيتروس قد انتقلوا إلى أفريقيا من اليونان و بعد سنوات ست لاحقة بدأت المتاعب إذ رحل جاكوب في رحلته التجارية المعتادة تاركا جينا خلفه وكان ذلك عندما بدا بيتروس يكبر فبدآ يعيشان معا بحريةٍ كالغجر وعند اكتشاف جاكوب ذلك انتابه

غضب شديد فارسل بيتروس إلى محل أخيه في المغرب هنا هربت جينا من المنزل ساعية للانتحار لكن حينما ألقت بنفسها في البحر أنقذها بعض البحارة العابرين فعادت إلى جاكوب ثم أصابها المرض الذي أدى لان تفقد جمالها ، وفي وقت لاحق ذهب جاكوب للقاهرة مع جينا للتجارة حيث أصابه المرض وبناءا على نصيحة الأطباء عاد ليعيش في القسطنطينية ووصلت أختاه قادمتان من بوخارست للعناية به، وبدأتا النزاع مع جينا و في ٢٣ مارس ١٨٦٦ مات جاكوب هورنشتين وأُخذت جينا في نفس اليوم إلى السجن متهمة بتسميمه وأكد تشريح ما بعد الدفن أنه لم يمت مسموما لكن جينا ظلت في السجن لان أقارب جاكوب كيما يستمرون في الاحتفاظ بميراثه اتهموها بالسرقة و الاحتيال، وقضت جينا ثلاثة أشهر في السجن ثم أُفرج عنها و أُطلقت لتتسلم ١٠,٠٠٠ دوكا نمساوية وأودعت جينا النقود لدى صرّاف أرميني وعاشت في القسطنطينية كامرأة ثرية لكنها بعد عام ونصف بعد ذلك قامت بسحب نقودها ورحلت إلى صربيا بحثا عن أقاربها وقضت معهم يومين فقط وزعت خلالها ١٠٠٠ دوكا بينهم و احتفظت بـ ٩٠٠٠ دوكا لنفسها ثم غادرت صربيا إلى باريس وهناك أنفقت كل ميراثها خلال عامين وقد عاشت لفترة مع رجل من ترانسلفانيا ثم تراكمت عليها الديون وعلى

ذلك تم ترحيلها إلى صربيا بواسطة السلطات المحلية وقضت العشرين سنة الأخيرة من عمرها مع أقاربها تعيش حياة متنقلة بدوية وماتت عام ١٨٩١ م وهنا واحدة من قصائد جينا مترجمة عن الرومانية وعلينا ألا ننسى على كل أن مصداقية وجودها تظل خاضعة للشك .

قصيدة جينا رانجيسيك .....مأخوذة من فيليسلوكى

سيئةُ الحظِ وتعسةٌ
كانت كلُ أياميَّ الماضية
لان اللهَ لم يمنحني
حتى ولا هِبَةً حلوةً واحدة
بحثتُ هنا وهناك
وتحولتُ بلا هدىْ
فلم أجد أحداْ
يا لسوء حظي
حينما أكونُ فوق التلالْ
أتمنى أن أكونَ في الوادي
وحينما أنامُ في الحقولْ
احلمُ بالنومِ فوق صفحةِ البحرْ
ياه ..... وأن أكون نجمةً
وسط ظلمة الليلِ
وأن أرتقي للقمرْ
فأنا مجنونةً بالحب
ولو كنتُ أجملَ وردةٍ في الكون

عاليةً فوق جبل هيموس
إلا أنني مجنونةٌ بالحب
فتشغى الأماكنُ بالذهب
بحبٍ كبيرٍ وخوف
أتشوق لرجوعك
ولتدع الأيام تمر سراعا
حتى تعود لي من جديد
تذهب أو تقيم
لما أعيش في شك يقيم
أنا لا أدرى ...ياإلهى
هل سيتفهم إثمي ...
عندما تكون نائياً في البعيد

*عبودية الغجر في مولدا فيا و فلاشيا :

عودة إلى القرنين الرابع و الخامس عشر نجد إن الغجر في هاتين الولايتين العثمانيتين (مولدافيا وفالاشيا) كانوا يعيشون حالة قانونية تم تأكيدها عدة مرات تُسَميّهم عبيد التاج والمقصود الأمير أو الأديرة أو النبلاء ، ولم يكن الشكل الذي اتخذته العبودية بقدر البساطة التي تمثلها المؤلفون إذ كانت غالبية الغجر يشكلون فئة " الفاتراش " وهم عبيد المنازل أي الخدم الذين يمتلكهم غالبا النبلاء والأديرة وكان تشغيلهم يتم أساسا في الزراعة ومارسوا حرفا متعددة وعملوا كخدم أو موسيقيين وفي أعمال منزلية متنوعة وكانت ثاني اكبر الفئات في الغجر فئة

"اللايش" وهم المتجولون فرغم أن أولئك المدعون باسم " عبيد التاج " كانوا أحيانا مملوكين للأديرة أو النبلاء وكبديل لرفع الالتزام السنوي كان يُسمح لهم بالعيش في حياة بدوية متنقلة وذلك لممارسة حرفهم التقليدية مثل الحدادة وصناعة وإصلاح الأوعية النحاسية والأدوات الخشبية والأمشاط وقضبان النوافذ والسلع الأخرى بالإضافة إلى عملهم كأجراء موسميين وعاش نفس الوضع الاجتماعي فئتا الاورارى والروداري الذين كانوا يعملون بتعدين الذهب في الجبال مع بعض القبائل الأخرى التي عملت بحرف مختلفة

وهكذا تبرز لنا صورة مناقضة عن حالة الغجر العبيد في مولدافيا وفالاشيا فهي من ناحية تصورهم محرومين من الحقوق المدنية وأن عددا كبيرا منهم تم استغلالهم ببشاعة وبيعوا كالسلع ونالهم أفظع أنواع العقاب وكان الإعدام الجماعي بالخازوق واحدا من الأساليب التي واجهوها في اغلب الأحوال ، ومن ناحية أخري تمتع العبيد بميزات متنوعة لم تكن متوافرة لأغلب فئات المجتمع المحلي خاصة القرويين الرومانيين ، وعلي أية حال كان الغجر يعتبرون طبقة اجتماعية دنيا ككل عدا حالة الغجري ستيفان رازفان الذي حكم كأميرٍ لمولدافيا لخمسة أشهر عام ١٥٩٥ م .

ومع استمرار تأثر ولايتي مولدافيا وفالاشيا بالرأي العام الأوربي ازدادت الضغوط لإلغاء الرق خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد حدد التشريع الصادر عام ١٨١٦ م أربع فئات من المواطنين؛ النبلاء والأحرار والعبيد والمُحَرَرين ، وكانت الفئتان الأخيرتان من الغجر أساسا ، وسياسة تحرير العبيد نص عليها دستور ١٨٣١ م بفالاشيا وكذلك القوانين المدنية لولاية مولدافيا عام ١٨٣٣ م ، والتي جاء فيها لأول مرة أن الغجر في الولايات المحلية قد تم إقرار حق كونهم أفرادا بالمجتمع بدلا من اعتبارهم ملكية خاصة ، وفقا للقانون الروماني الذي تأسس علي مبادئه النظام القانوني للمحليات ، إذ لو قُتل أحد من العبيد فلن يفلت الفاعل دون عقاب وفي نفس الوقت ظل العمل التجاري مسموحا به للغجر بما في ذلك البيع داخل الأسواق العامة إلا أن منع الزواج بين الغجر والأحرار استمر في التطبيق ويصبح أطفال مثل هذا الزواج – إن وقع – عبيدا ، وكانت هناك محظورات أخري مستمرة في التطبيق .

وفي ظل شروط معاهدة باريس التي أنهت حرب القرم كان علي الولايتين أن تهجرا العبودية ..، ففي مولدافيا عام ١٨٥٦ م تم تقديم قانون تقوم الدولة – تنفيذا لبنوده – بشراء العبيد من مالكيهم بشكل جماعي وتحررهم ،

وتم تمرير قانون في فالاشيا في ذات الوقت تقريبا ، وقد حدثت تلك العمليات بصعوبة كبيرة وأحد أسباب تلك الصعوبات كان عدم رغبة عدد كبير من الغجر في تغيير حالاتهم المدنية من عبيد لأحرار وهناك العشرات من الوثائق التاريخية التي تؤكد ذلك ، فالعديد منهم كان في حالة أفضل بالتزامه بدفع ضريبة سنوية ثابتة من أن يتحول إلى مواطن عادي عليه التزامات ضريبية أكثر بلا ملكية مع حرية محدودة الحركة .

وفي عام ١٨٥٧ م في فالاشيا تم شراء ٣٣٢٦٧ أسرة من الغجر وتحريرها من العبودية كان منهم ٦٤٢١ من عبيد الدولة و ١٢٠٨١ من عبيد الأديرة و ١٤٩٤٥ مملوكين للأفراد ، أما الإحصاءات الخاصة بمولدافيا فهي ناقصة ولكن التقديرات تصل بالعدد إلي ٢٠٠٠٠ أسرة وإذا كان متوسط عدد الأسرة خمسة أفراد يكون من ذلك وجود ٢٥٠٠٠٠ غجري عاشوا في الولايتين في ذلك الوقت ، ويُعد عام ١٨٦٤ م هو التوقيت النهائي للقضاء علي العبودية في هاتين الولايتين حينما وحد الدستور بينهما في دولة واحدة هي رومانيا .

- هجرة الغجر : -

كان غجر مولدافيا وفالاشيا (رومانيا حاليا) بأحوالهم المدنية الخاصة هم القوة الرئيسية وراء ما يسمي " الغزو الكبير " لجماعات

الكالديراري لغرب أوربا ، ويجب أن نشير – فعلا – لبعض الفئات وليس إلي المجموعة كلها طالما كان هناك العديد من جماعات الغجر من المحتمل أن تكون ذات علاقة وسط فئات "اللاشي" منهم ، بينما نجد فئتي الأوراري والروداري من بين الأسماء العامة للقبائل ، قد حافظوا علي التقاليد القديمة لحياة البدو الرُحّل ، وخلال العمليات الطويلة التي تمت للقضاء علي العبودية في الولايتين ، ارتحل عدد كبير إلي ترانسلفانيا وغرب بانات في الإمبراطورية النمساوية المجرية حيث وجدت جماعات كبيرة من الغجر الرُحّل لها علاقة قرابة بهم – وكان ذلك التركيز في تواجد الغجر نقطة البدء لهجرات غجرية أخري ساعدت بالتدريج علي تحرك أعداد كبيرة منهم كانوا مستعدين للاستقرار في وسط أوربا، وباستمرار تحركهم واختراقهم أراضٍ جديدة لا يمكن البحث عن السبب الشامل القاصر وحده علي هذه الهجرات الجماعية المتوالية في القضاء علي العبودية في ولايات شمال الدانوب رغم أن ذلك السبب – القضاء علي العبودية – كان العامل الفعال والمساعد الذي أطلق ضربة البدء لعملية كانت نتاج تطورات اقتصادية واجتماعية عامة خلال تلك الفترة ، وقد أدت الثورة الصناعية وبداية العصر الحديث في أوربا إلي ظهور الحاجة لتغيّرات أساسية في حياة الغجر الرُحل ، وكان

عليهم إيجاد أنماط جديدة للعمل وللهروب من الحدود الإقليمية المكانية للمقاطعات التي تنقلوا فيها تقليديا في حالة ارتحالهم – وتزايدت معدلات هجرة الغجر خلال الحقب الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وقد وصلوا إلي ما وراء أوربا ، وكان ذلك يؤدي بصورة مطلقة إلي تغيرات بارزة في توزيع السكان

من الغجر حول العالم . وكانت القوة الحركة الرئيسية وراء هجرات الغجر خلال هذه الفترة القبائل الكبرى المكونة من الكالديراري واللافاري بالإضافة إلي بعض من ذوي الصلة بناطقى اللغة الرومانية من مولدافيا وفالاشيا ، وقد حدثت موجة أخرى كبرى من الهجرة لجماعة الروداري – أو الوداري – المعروفة في وسط أوربا وفى أماكن أخرى من العالم باسم "بيشى" ويتحدثون الرومانية ويظنون أنفسهم رومانيين لاغجر .

وكانت الهجرات تتم بشكل رئيسي من الشرق إلى الغرب لكن جماعات الغجر المختلفة اتخذت طرقاً متعددة لتصل إلى مدى بعيد من الأراضي الأوربية بالإضافة إلى اشتراك جماعات صغرى من الغجر في عمليات الهجرة تلك ، وبذلك تزيد أعداد المرتحلين فيزيد نمط الهجرة تعقيداً ، وعلى سبيل المثال ظهرت عام ١٨٩٧م في ضواحي مدينة وارسو جماعة غجر

من الجزائر وصلوا للمنطقة عن طريق القوقاز وروسيا ووصلت في نفس السنة جماعات أخرى من الغجر من بغداد إلى ذات المدينة ثم غادروها بعد قليل إلى جهة غير معلومة .

يمر طريق هجرة الغجر الرئيسية من مولدافيا وفالاشيا عبر ترانسلفانيا ثم ينفصل إلى طريقين فرعيين ، إذ يمضي الطريق الأول باتجاه الشمال الشرقي عابراً المجر وبولندا حيث يلتقي المهاجرون بقبائل ذات قرابة من الذين اتخذوا الطريق الشرقي ووصلوا الآن إلى روسيا وقد بقى بعضهم في بولندا والمجر في حين ارتد الآخرون غرباً بطريق ألمانيا وهولندا حتى وصلوا لفرنسا وبريطانيا العظمى وأسبانيا ، ومر الطريق الثاني ببلاد البلقان وإيطاليا – حيث استقر بعض الغجر مرة ثانية – ثم وصلوا لفرنسا وبريطانيا العظمى ثم أسبانيا ، وكانت هذه البلدان الثلاث مكاناً شائعاً للقاء جماعات الغجر الذين يصلون هناك بواسطة طريق من الطرق المذكورة ، ثم يتوجهون في جماعات إلى استراليا وكندا وأمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية . وعبر أحقاب عديدة متلاحقة وهم يشقون طريقهم عبر عدد من الأراضي الجديدة ، استقر الغجر في كل قارة ، وقد استخدموا ليس فقط أساليبهم التقليدية في الترحال والانتقال وإنما مستخدمين

وسائل جديدة في النقل والتحرك من منجزات العصر مثل القطار والقوارب .

وبهذا بزغت صورة جديدة مختلفة تماماً لمجتمعات الغجر حول العالم ، صورة استكملت ملامحها النهائية في الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.

* نهاية الإمبراطورية العثمانية :

بعد ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ تم تقييد سلطات أسرة السلطان في الإمبراطورية العثمانية بصورة ملحوظة، واتخذت البلاد طريق الإصلاح السياسي الذي لم يؤت ثماره مبكراً، وقد عانت الإمبراطورية من كارثتها الثانية خلال الحرب العالمية الأولى. فباعتبارها ضمن الجانب الخاسر ونتيجة لمعاهدة سيفر ١٩٢٠م كان عليها أن تتحمل فقد العديد من الأراضي ، وبعد الحرب اليونانية التركية ١٩٢١ – ١٩٢٢ م والتي انتهت بمعاهدة السلام في لوزان ، وضع مصطفى كمال قائد الدولة الجديد والمعروف باسم أتاتورك نهاية للإمبراطورية بشكل حاسم وبدأ يبنى مكانها دولة عثمانية جديدة لتركيا ، وبعد فترة احتضار طويلة ، بدتْ النهاية الرسمية – حقيقة – لإمبراطورية عثمانية كانت ذات يوم عظيمة .

وهذه التغيرات النهائية انعكست على مصير الغجر الذين مازالوا باقين ضمن حدود الإمبراطورية وداخل ولاياتها التي خضعت لها

ذات مـرة فـي البلقـان ، وبعـد نهايـة الحـرب العالميـة الأولـى قـام بعـض غجـر منطقـة شـرق تراس-ليس المسيحيون منهم فقط بل والمسلمون كذلك- ، بالانتقال إلى بلغاريا الغربية ، إذ كانت هجـرات الغجـر تـزداد حجمـاً حتـى بعـد توقيـع معاهـدة لـوزان ، ووفقـاً لمـواد المعاهـدة التـي أوجبت حدوث تبادل للسكان بين تركيا واليونـان ، كـان علـى الأتـراك فـي الأراضـي اليونانيـة أن ينتقلوا إلى تركيا ، بينما كان على اليونـانيين فـي تركيـا - وهـم أساسـاً مـن الجـزء الآسـيوي مـن الدولة - أن ينتقلوا إلى اليونان .

وقد انزاح كثير من الغجر وسط تلك الحركة السكانية ، فهـاجروا إلـى كـلاً الجـانبين ، وبـذلك دخلـوا أراضٍ جديـدة رغـم أن بعـض المسـلمين ظلوا باليونان ونتيجة لتلك التغيرات ظل الغجر باقين بشكل دائم ضمن الحدود الجديدة لولايات البلقان ذات الأمة الواحدة .

ومنـذ ذلـك الحـين فصـاعداً، أضـحى المصـير التـاريخي للغجـر وتطـور وجـودهم كجماعـات اجتماعية متداخلاً في أنسجة غالبية السكان لتلك البلدان؛وقد انطلقت كـل ولايـة مـن البلقـان فـي طريقهـا الخـاص ، تقـوم بتجربـة تطـور نظمهـا السياســية والاقتصــادية المتعــددة بالإضــافة لتوجهات حكومية مختلفة تجاه الغجر ، وقد بقـى إرث الإمبراطورية العثمانية – على أية حـال – قائماً بأشكال متنوعة ، سواء في صورة الثقافات

العرقية المتواجدة مثل ثقافة الإسلام والعادات المتعلقة به والتقاليد التي ورثها عدد كبير من الغجر في بلاد البلقان ، أو في صورة تأثير التقاليد التاريخية والثقافية للعثمانيين الذي مازال راسخاً في حياة أفراد الولاية البلقانية .

أما الحروب والتغيرات المتكررة للحدود فقد تواصلت حتى اليوم، وأبرز مثال حاضر هو تفكك يوغسلافيا وتكوين دولة جديدة، وكان لكل هذا تأثير ما على الغجر ودفعهم لهجرات جديدة.

* رعب كوسوفو ..... التركة العثمانية:

كانت حالة الغجر – دائماً – في البلقان هي حالة الدخيل على المجتمع كما وضح في هذه الدراسة ، سواءً ولدوا مسلمين أو مسيحيين ، مُرْتَدّين أو متكرري الارتداد إذ لم يقبلهم رجال الدين أو آي من أصحاب العقيدتين[٨] وقد دعمت الدولة العثمانية ذلك بما فرضته على الغجر كحالة قانونية وضريبية خاصة ، مواصلة بذلك – كاحتمال – ممارسات كانت قائمة في الدولة البيزنطية.

كان التقدير يوجه للغجر لمهارتهم في الجيش وفي العزف الموسيقى لكنهم نادراً ما احتلوا مناصب رسمية ، إذ أظهرت الصفحات السابقة

---

[٨] هذه ملحوظة غريبة فالإسلام لا يمنع آي إنسان من اعتناقه، لأي سبب كان عرقياً أو اجتماعياً أو مادياً والإسلام يُبنى فقط على مجرد قبول أصوله الخمس المعروفة – المترجم

آن الغجر كأي فرد آخر قبل أيام رفاهية الدولة ، أبعد ما يكونون عن الكسل وكان عليهم أن يعملوا ليكتسبوا عيشهم من بدو متنقلين باعوا اللبن لفلاحي القرى إلى عمال المناجم في البوسنة وفالاشيا . وكان أولئك المسمون رؤساء الغجر أو جامعو الضريبة نادراً ما يعينون من داخل الجماعة ، وحل بهم نذيرُ شرٍ بحدوث مذبحة كوبريف شتيتسا للمسلمين الغجر .

حيث نظر الأهالي في بلغاريا إلى كل رجل وامرأة وطفل من الغجر كمشاركين في الحكم التركي المتعسف، فأحرقوا منازل الغجر لدفعهم إلى إخلاء القرى في الربيع، وقد رأينا أحداثاً مشابهة في رومانيا مع نهاية القرن العشرين وسط الصراع على الأراضي المقرر خصخصتها .وتواصلت حالة الانعزال حتى القرن التاسع عشر ، وخلال الحرب العالمية الثانية قام الغزاة الألمان بقتل الغجر في صربيا ، ثم بواسطة الفاشستيين الكروات في البوسنة وكرواتيا ، عندما نشب الصراع الحالي في البوسنة كان الغجر أول من تعرضوا "للتطهير العرقي" في بعض المناطق وفقاً لاصطلاح العصر الحديث ، وحدث ذلك عام ١٩٩٢م بعدما قامت قوات الناتو بغزو كوسوفو وأعيد اللاجئون الألبان للإقليم فانقلب اللاجئون على الغجر لأن قليلاً من هؤلاء أبدوا تعاوناً مع الحكام الصرب الجدد . فتم طرد آلاف منهم من

كوسوفو التي كانت يوماً قلب الثقافة الرومانية "الغجرية" وقد عمل الأتراك على مبدأ "فرق تسد" مع كل رعاياهم وعندما سقطت الإمبراطورية انكمشت حدود الدولة مع اتفاقية برلين ١٨٧٨م تاركة بعضاً من الأقليات في كل دولة جديدة ، والبعض يقول أن تيتو وعد الغجر الرومانيين بدولتهم المستقلة لو قاتلوا بجانب مقاتليه ، لكن ذلك الوعد – إن كان قد قيل – لم يتم تنفيذه أبداً . فبينما يمكن للصربيين في كوسوفو أن ينظروا إلى مواطنيهم في صربيا كموئل للدعم والتماسك ، ويمكن لبقايا اليهود في بريستينا الهجرة إلى إسرائيل ، نجد الرومانيين "الغجر" التائهين بلا وطن لا يستطيعون العودة إليه.

وهكذا يتلكأ الإرث العثماني طويلاً على معاناة الغجر في يوغسلافيا اليوم.